إذا ورد لفظ الحداثة فى سياق نص من نصوص التاريخ فهم المرء من هذا اللفظ معنى مرتبطا بحركة الزمن من الماضى البعيد إلى ماضى قريب أو الى الزمن الحاضر ـ ذلك بأن التاريخ نفسه لا غنى له عن مفهوم الزمن بل أنه ليعد من حيث طابعه العام **chronology** أو ربطا للأحداث بتتابع الزمن. وإذا كان البحث التاريخى ينصب فى كثير من الحالات على فترة معينة أو زمن معين فإن آخر هذه الفترة أو ذلك الزمن يعتبر حديثا بالنسبة لأوله أو لما سبقه من أحداث هذا العصر نفسه . ومعنى ذلك أن الحداثة فى التاريخ نسبية لا مطلقة. وآية ذلك أن المؤرخين يتكلمون عن آخر العصور الفرعونية تحت عنوان "الدولة الحديثة" ، وهى بحسب المعايير المطلقة أقدم من حضارة الاغريق وما جاء بعدها من حضارات. ولو أننا ارتضينا هذا المفهوم التاريخى فى أحوال عالمنا العربى والعالم الثالث بصورة عامة لوجدنا الحداثة بلية نسأل الله أن ينقذنا منها وأن يرد الينا مجد ماضينا الذى عصفت به السنون والأيام.

وإذا ورد لفظ الحداثة نفسه فى نص من نصوص الإصلاح الاجتماعى فإنه سيكون ألصق بفكرة "التغيير" منه بمفهوم الزمن. ذلك بأن الإصلاح الاجتماعى قد يتم بالتطور وقد يتم بالعنف. فإذا تم بالتطور اصبح "التغيير" به أوضح من "الزمن" وإذا تم بالعنف فإن العنف وحده لا يتعدى أن يفتح الطريق أمام التغيير الذى لا يتم فجأة كما تم العنف وأنما يمتد على الأيام حتى فى أكثر الثورات حرصا على سرعة الانجاز. وإذا صح أن ينسب العنف أو تنسب القرارات الرسمية إلى لحظة بعينها فإن التطور الاجتماعى الذى يبدأ بسبب هذه العوامل يخضع لتغيير النفوس الإنسانية أكثر مما يخضع لمفاجآت الأمور المادية. ومن هنا ترتبط الحداثة فى عرف المصلحين الاجتماعيين بالتغيير. وحسبنا أن الفرنسين يعدون ثورتهم صانعة

المجتمع الحديث وأن نابليون فى نظرهم جزء من المجتمع الفرنسى القائم. كما أن جورج واشنطون هو بطل المجتمع الأمريكى مثله مثل ابراهام لنكولن.

أما فى عرف المنتجين من الفنانين والباحثين ورجال الصناعة ونحوهم فربما كانت الحداثة مرتبطة بالابتكار سواء أكان الابتكار مذهبا فنيا أم عملا فى حدود هذا المذهب وسواء أكان منهجا علميا أم بحثا فى حدود هذا المنهج وسواء أكان انتاجا مستحدثا أم سلعة من نوع هذا الانتاج. فالمعنى الذى يقصده من يطلق لفظ الحداثة على أى واحد من هذه الأشياء يحمل فى طيه معنى الابتكار . فالذى يتكلم عن القصيدة الحديثة لابد أن يحمّل اللفظ ظلالا من الشكل الشعرى المبتكر الذى لم يكن مقبولا منذ عدد من السنين والذى يحمل فى طيه قدرا من الترخص فى القافية وفى التوازن (إن لم يكن فى الوزن) وفى مقدار المناسبة المعجمية بين المفردات والجرأة النحوية على طرق التركيب. والذى يصف بحثا بالحداثة يغلب أن يقصد بهذا الوصف أن البحث قد تم فى حدود منهج حديث أو أنه ابتكر لنفسه مناهج لم تكن معروفة أو معروضة للتنفيذ منذ وقت قريب ومن ثم فهى ابتكار لم يكن معروفا قبل ذلك الوقت القريب.

أما الحداثة فى عرف رجال الدين فلا مكان لها فى العقائد ولا فى العبادات فهذان الحقلان لا يقبل فيهما إحداث أى شئ إلا مع وصف صاحب الحدث بالمروق والخروج من ربقة الدين. ولكن الأمر فى المعاملات يختلف إلى حد ما وربما قبل "الأمر المحدث" تحت عنوان "البدعة". غير أننا إذا عرفنا أن كل محدثة بدعة فلابد أن نعرف أيضا أن كل بدعة ضلالة وكل ضلالة فى النار وإن دافع بعض الفقهاء عما سموه "البدعة الحسنة" التى تدعو إليها "المصلحة"، لأن "المصالح المرسلة" مصدر من مصادر التشريع فى بعض المذاهب.

أما فى حقل العادات والتقاليد فإن الحداثة مستهجنة كما كانت فى حقل الدين ولكن هذا الحقل يفضل أن يعطى للبدع اسما آخر تبدل فيه العين من دال التقاليد فتصبح الكلمة "التقاليع" والمعنى هنا مرتبط بالغرابة أكثر مما يرتبط بمفهوم الزمن، ويتضح ذلك بصفة خاصة فى الأزياء وطرق السلوك الفردى الذى لا يمس

الآخرين من أبناء المجتمع كاطالة الشعر وحمل جهاز الراديو أثناء المشى واستعمال المشط فى الطريق وهلم جرا.

إذا تأملنا ذلك عرفنا أن مفهوم الحداثة ليس مفهوما متجانسا فى المجالات المختلفة من النشاط الإنسانى وأنما يختلف من مجال ويتسم بالنسبية فى معظم الحالات. وقد عرفنا أن معنى الحداثة فى حقل البحث هو الابتكار ولكن البحث بخصوصه شئ والعلم فى معناه العام شئ آخر ويهمنا هنا أن نعرف ما الذى يتبادر إلى الذهن عندما نسمع عبارة "العلم الحديث". لا شك أن بعض ما يصدق عليه هذا الاصطلاح يقع فى عداد التراث فهو حديث بمعنى أنه لا ينتمى إلى القرون الماضية وأنه ربما كانت بدايته فى نهاية القرن التاسع عشر أو فى العقود الأولى من القرن العشرين إن لم تكن أحدث من ذلك فى الزمن. فالحداثة هنا تبدو مرتبطة بالمنهج العلمى الوضعى الذى ساد فى حقل العلوم الطبيعية أولا ثم اتسع بعد ذلك للعلوم الاجتماعية أى أن الحديث فى العلم هو المنهج والاكتشاف.

فأين تقع الحداثة من اللغة العربية؟ أتقع فى نطاق الزمن أم التغيير أم الابتكار أم البدعة أم التقاليع أم المنهج والاكتشاف؟ الملاحظ أن اللغة تتطور من عصر إلى عصر. ولقد تطورت اللغة العربية الفصحى منذ عصر النحاة الأوائل إذ كانت صورتها على الهيئة التى تحددها كتب النحو وفقه اللغة والمعاجم فوقع لهذه الصورة من التحول فى الأصوات والمفردات وطرق التركيب وأنماط الجمل ما دعانا إلى أن نتكلم فى الوقت الحاضر عن "الفصحى الحديثة". لقد اختفت الضاد العربية التى وصفها سيبويه فى كل المجتمعات العربية المعاصرة وحل محلها صوت الدال المفخمة فى مصر والشام وحلت محلها الظاء فى المجتمعات العربية الأخرى. وكذلك اختفت الطاء التى قال سيبويه إنها لو رققت لصارت دالا كما أن الدال إذا فخمت كانت النتيجة طاء. واختفت لدى المصريين والسوريين الأصوات الإنسانية الثلاثة (ث ، ذ ، ظ) وحلت محلها السين والتاء ثم الدال والزاى ثم زاى مفخمة على الترتيب فأصبحنا نتكل عن الوزن التقيل (بالتاء) والولد السقيل (بالسين) وعن (دكر) ضد أنثى و (وزكر) فعل ماضى بمعنى تذكر أو أورد فى كلامه ذكر شئ ما وقد نتكلم عن (الضلام) بالعامية ونسمى أحد الشوارع بالقاهرة (نور الزلام)

بتفخيم الزاى. والملاحظ فى كل ذلك أن النطق بالصوت الشديد يحمل فى طيه التزاما بالنطق العامى وأن الصوت الرخو يشير إلى نزوع إلى النطق الفصيح.

هذا من حيث ما أصاب الفصحى من تطور صوتى على ألسنة العرب أما فى حقل المفردات فما أكثر ما طرأ عليها من ألفاظ الحضارة والمصطلحات سواءا كان ذلك بواسطة الارتجال أو الاشتقاق أو التعريب وما أكثر ما مات من ألفاظ كانت سارية فى الاستعمال فى القرون الأولى وحسبك أن تنظر فى أى معجم من معاجم اللغة العربية لترى حشود الألفاظ التى بطل استعمالها والألفاظ الأخرى التى لحقها التطور فى دلالاتها فلم تعد تؤدى من المعانى ما كان يقصد بها فى العصور الخالية. كل ذلك إذ لا يدعى لواحدة من هذه المفردات أنها من قبيل الغريب أو الحوشى أو المهجور ودون أن تبطل بقرار أو حكم شرعى كالذى صدر بالنسبة لكلمات أخرى أبطلها القرآن بقوله: ﴿ مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ ۙ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ﴾ (المائدة : ١٠٣).

أما من حيث التراكيب فاقرأ أى واحدة من الصحف العربية وسترى المضارع يدل على الماضى ويقترن بظرف زمان يفيد المضى فيقال مثلا "الزعيم الفلانى يصل أمس فجأة إلى القاهرة ويجرى محادثات مع المسئولين المصريين" وستجد الكاف المشهورة التى لا تفيد تشبيها ولا تعليلا عند قول بعضهم "أنا كأستاذ لمادة كذا أرى كذا" وستجد أيضا عودا للضمير على متأخر فى قول بعضهم: "فى عرضه للموضوع الفلانى قال فلان كذا وكذا". أو إخراجا للفعل عن تعديته أو لزومه إذ يقال: "التقى فلان فلانا". فإذا تأملنا وصف الفصحى بالحداثة هنا فالمعنى ألصق بالتغيير منه بمفهوم الزمن أى أن تغير اللغة أو التغير الذى خضعت له اللغة هو من قبيل التغير الاجتماعى لأنه تطور تدريجى لا يفطن إليه الملاحظون ألا بعد وقوعه فعلا ومن هنا يصعب الربط بينه وبين زحف الزمن. فهو بمصطلح دى سوسير Diachronique ولكنه ليس Historique بالمعنى المألوف.

هذا أحد المعانى الممكنة للحداثة حين نعقد نسبة بينها وبين اللغة العربية ولكن هناك معانى أخرى يمكن أن تكون لهذه النسبة أوضحها أن نرى الحداثة مرتبطة

بمناهج النظر فى اللغة فى عمومها. وفى الحق إننا كثيرا ما نقع على عبارة "المنهج الحديث" فتبدو العبارة غامضة أو ملبسة فلو سألت سامعها عما فهم منها لم يستطع أن يعطيك جوابا صحيحا بل إنك لو وجهت هذا الاستفهام إلى قائلها فلربما لمحت منه بعض التردد قبل أن يستجمع قوته ويشحذ ذاكرته ويمدك بالجواب الذى أسعفته به القوة والذاكرة. بل قد يعجز أمام تعدد المناهج الحديثة أن يختار واحدا منها يعينه ليجعله المقصود من عبارة "المنهج الحديث". ذلك أن ما نسميه تجوزا بالمنهج الحديث هو فى الواقع مناهج متعددة تختلف نظرة كل منها إلى المادة اللغوية عن نظرة المنهج الآخر وهى متشعبة الأصول متنوعة الغايات. فلقد كان علم اللغة الحديث عند نشأته خالصا لوجهة النظر التاريخية يقوم على المقارنة بين اللغات حتى إذا تحقق له بعد المقارنة أن ينشئ من اللغات الإنسانية مجموعات متباينة لكل مجموعة منها أصل افتراضى مجرد يسمى اللغة الأم جاء تحويل هذا العلم على أيدى النحاة الفتيان إلى اتجاه تاريخى آخر يرتبط بفرادى اللغات حتى ظهر العالم السويسرى فرديناند دى سوسسير فرأى اللغة نظاما ثابتا وبنية متكاملة لا يمكن وصفها إلا بزعم ثباتها على حالة واحدة وأن التأريخ لها لابد أن يكون رصدا لمراحل متوالية كل مرحلة منها تعد مرحلة نظام ثابت ومن فكرة النزام هذه نشأت دراسة اللغة دراسة وصفية تصنيفية تبدأ بإنشاء النظام الصوتى للغة ومن هنا أصبح من المفضل أن يتجه الدرس إلى اللغات الحية المسموعة لا إلى اللغات القديمة ذوات الآداب المسجلة فى الكتب. ولقد كانت أفكار دى سوسير سببا فى نشأة عدد من المدارس اللغوية ذوات المناهج المختلفة كمدرسة براغ ومدرسة كوبنهاجن والمدرسة الفرنسية. وكانت بداية الدراسات الأوروبية فى ظل لغات قديمة لها آداب مشهورة مدروسة دراسة واسعة وعميقة أما فى أمريكا فقد ارتبطت البداية برغبة الحكومة الأمريكية فى معرفة لغات القبائل الهندية ليتيسر التعامل معها فسخرت لذلك عددا من الباحثين فى الانتروبولوجيا الذين بدأوا البحث فى هذه اللغة من نقطة الصفر إذ لم يكونوا على معرفة بهذه اللغات ومن هنا ارتبطت دراستهم بالبحث فى المبنى دون الخوض فى المعنى بل أنهم رأوا المعنى اقليما غير قابل للاستكشاف على الطرقة الأوروبية فجعلوا معنى كل عنصر تحليلى هو موقعه من

السياق ورأوا أن أفضل طريقة لفهم المعنى الكلى أن يتم من خلال وجهة النظر السلوكية أى بطريقة الربط بين الإثارة والاستجابة. ركز الأمريكيون عنايتهم فى البداية على إنشاء النظم الصوتية لهذه اللغات فى وقت كان الأوربيون فيه لا يحجمون عن اخضاع الدراسات النحوية والاجتماعية اللغوية للمنهج الحديث. وكان الأوروبيون على الطريقة النحوية القديمة يجعلون أبواب النحو وظائف للكلمات المفردة فى السياق ولكن الأمريكيين بعد بلومفيلد لاحظوا أن بناء النحو على المفردات يفتح الباب على مصراعية للبس فقالوا إن التحليل النحوى يجب أن يبنى على المكونات المباشرة للجملة. وإذا كانت الكلمات هى أصغر ما يمكن إفراده عن السياق فإن المكونات المباشرة هى أكبر العناصر التحليلية لما دون الجملة. وقد يكون المكون المباشر كلمة مفردة كما فى ركنى جملة "صديقى قادم" وقد يكون أطول من ذلك نحو " صديقى الذى حدثتك عنه بالأمس قادم الينا ممسكا بشئ لا أعرفه فى يده "فالمكونان فى الحالتين هما الصديق وكل ما يرتبط به ولفظ "قادم" وكل ما يتعلق به أيضا.

ثم جاء العالم الأمريكى تشومسكى فاتهم كلا من الأوروبيين والأمريكيين على السواء بأنهم أكثر عناية بالتصنيف والوصف منهم بالدقة العلمية واقترح أن يبدأ التحليل اللغوى من أساس عقلانى مجرد سماه "البنية العميقة" وهذه البنية العميقة غير صالحة للتعبير اللغوى لأنها لا تنطق وإن صلحت لدى البعض للرمز المنطقى. وقال أن المهم ليس الوصف والتصنيف فقط وأنما ينبغى أن يكون للتحليل إلى جانبهما "طاقة تفسيرية" تحدد لم تتحول بنية عميقة معنية إلى واحدة يعينها من مجموعة البنيات السطحية الممكنة للتعبير عنها ثم أكد تشوسكى أن اللبس ما يزال واردا على النحو المبنى على المكونات المباشرة وأن طريقته التى جاء بها (وتسمى النحو التوليدى أو النحو التحويلى) هى بمفردها القادرة على الكشف عن الملبس وغير الملبس من البنيات السطحية وعلى نسبة البنية السطحية الى بنية عميقة بذاتها دون غيرها.

ولعل موقع كل مدرسة ذات منهج من أخواتها تتضح من التخطيط التالى:

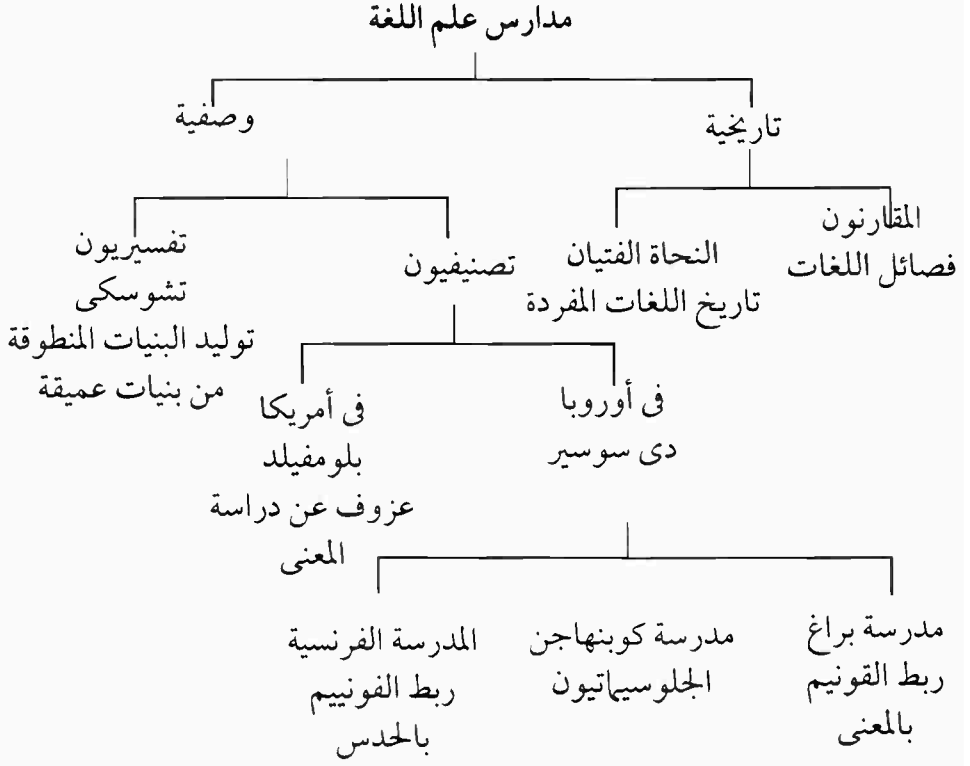

يتضح من هذا أن نسبة الحداثة إلى المنهج نسبة ذات أبعاد زمنية مختلفة ولكنها ترتبط ارتباطا محكما بفكرة التغيير. أما إذا وصفنا بالحداثة منهجا من مناهج البحث فى اللغة العربية فأننا يمكن أن نضيف إلى هذا الايضاح ايضاحا آخر يتصل بطبيعة المنهج العربى التقليدى. ذلك بأن مناهج اللغويين العرب من السلف تحمل فى طيها الاستقراء والتصنيف والتجريد والحتمية والوصفية وربط الصوت بالمعنى والمقارنة والتأريخ والمعيارية والتفسير وتحقيق صدق النتائج وغير ذلك اتجاهات المناهج على نحو ما سنوضحه فى الفقرات التالية بإذن الله.

لقد اعتمد النحاة على الاستقراء الناقص وهو عماد المنهج العلمى بالنسبة للعلم المضبوط واعتمد فقهاء اللغة والمعجميون منهم بصورة خاصة على الاستقراء التام حسبما تتطلبه طبيعة موضوعهم يدور حول مفردات اللغة على حين يدور موضوع النحاة حول قواعدها الكلية ولهذا تناول النحاة بالملاحظة نماذج من اللغة أطلقوا

عليها مصطلح "المسموع" وانصرفوا عن بقية المستعمل فاقتصدوا مثلا فى الاعتماد على القرآن لتعدد القراءات وعلى الحديث لجواز الرواية بالمعنى وصرفوا معظم همهم إلى الشعر وكلام العرب. أما اللغويون (أى فقهاء اللغة) فقد كان عليهم أن يحددوا موقف كل مفردة من مفردات اللغة من حيث المعنى الذى ينسبونه إلى الكلمة فى المعجم أو من حيث أصل استعمالها وما إذا كانت عربية أو دخيلة أو معرّبة أو حوشية.. إلخ، ومعنى ذلك أن الاستقراء بنوعيه قد عرفه القدماء واستعلموا كل نوع منه حيث ينبغى أن يستعمل.

أما التصنيف فأننا نعرف كيف نشأت الدراسات اللغوية العربية بتصنيف أقسام الكلم إذ قال على بن أبى طالب لأبى الأسود الدؤلى: "الكلم اسم وفعل وحرف .. الخ"ثم عمد النحاة بعد ذلك إلى تصنيف فروع كل قسم من هذه الأقسام فقالوا فى الفعل: ماض ومضارع وأمر وفى الاسم: اسم علم واسم جنس واسم زمان واسم مكان.. الخ، وفى الحرف: حروف المعانى وحروف الزوائد .. الخ. ثم صنفوا الأبواب النحوية فى داخل الجمل وصنفوا أساليب الجمل بل صنفوا الكلمات إلى جامد ومشتق وإلى مجرد ومزيد وإلى متصرف وغير متصرف وهلم جرا مما جعل من السهل عليهم أن ينشئوا قواعدهم التى كان يستحيل انشاؤها دون هذا التصنيف.

ولقد جرد النحاة الأصول وجردوا القواعد وجردوا المصطلحات لتسمية الأصناف فكان مما جردوه أصل الوضع وأصل القاعدة وجعلوا كل أصل من ذلك نقطة البداية لفهم المستعمل لأن المستعمل إما أن يتسم بالاستصحاب إذا تطابق مع الأصل المجرد أو بالعدول إذا بدا على صورة مختلفة عن صورة الأصل. وأصل الوضع ينسب إليه الصوّت وتنسب إليه الجملة. فلفظ "ينبغى" مثلا ينطق على صورة "يمبغى" ولكن تفسير ذلك أن الأصل هو النون ولكن النون لما سكنت وتلتها الباء خرجت من مخرج الباء واحتفظت بغنتها فأصبحت كالميم وذلك طلبا للخفة فى النطق. وكذلك "قال" أصلها "قول" فلما تحركت الواو وانفتح ما قبلها قلبت ألفا طلبا للخفة أيضا. وكذلك "إذا السماء أنشقت" أصلها " إذا انشقت السماء انشقت" لأن إذا الظرفية لا تدخل إلا على الجملة الفعلية للتفريق بينها وبين إذا الفجائية فلما وقع بعدها الاسم المرفوع لم يعرب مبتدأ وإنما جعل فاعلا لفعل

محذوف يفسره الفعل المذكور بعد الاسم المرفوع. ففى كل واحدة من هذه الحالات عدول عن الأصل وكل شرح جئنا به معه ردّ إلى الأصل المعدول عنه ـ وأما أصل القاعدة فمثاله "المبتدأ معرفة" وقد عبر ابن مالك عن هذه القاعدة بقوله: "ولا يجوز الابتداء بالنكرة" ولكن لهذه القاعدة الأصلية قاعدة أخرى فرعية مستثناة منها عبر عنها ابن مالك أيضا بقوله: "ما لم تفد ..." فإذا أفادت النكرة جاز الابتداء بها وتلك قاعدة فرعية مستثناة من قاعدة أصلية.

إذا كان النحاة قد استعملوا الاستقراء الناقص فى سبيل إنشائهم النحو العربى فإن الاستقراء الناقص لا يستقيم بغير الحتمية. ومعنى ذلك أن الحقائق التى يستخرجها النحاة باستقراء المسموع قاصرة عن أن تصدق على غير المسموع ما لم ينطبق عليها مبدأ الحتمية الذى يعممها على غير المسموع. وهكذا استعمل النحاة مبدأ الحتمية تحت عنوان آخر هو "القياس" أو كما يسميه الأصوليون "قياس الشاهد على الغائب" ويتضح ذلك فى استعمال اسم "النحو" نفسه لأنه مأخوذ مما يروونه من قول على رضى الله عنه لأبى الأسود الدؤالى: "انح هذا النحو يا أبا الأسود" بل إن لفظ القياس يتردد كثيرا فى عبارة يقولها النحاة: وعلى ذلك قس".

ونهج النحاة العرب منهج الوصفية التى يباهى بها المحدثون. وأوضح ما يكون ذلك فى نشاط النحاة الأولين الذين كان يغلب على ألسنتهم أن يقولوا: "العرب تقولك كذا" بدلا من قول الآخرين يجب ويجوز . حقا إن ذلك كان أوضح فى اتجاه بعض الأولين منه فى اتجاه بعضهم الآخر فلقد كان أبو عمرو بن العلاء حريصا على هذا الطابع الوصفى عندما سئل عما يفعل بما خالفت فيه العرب قواعد النحاة قال: "أعمل على الأكثر وأسمى ما عداه لغة " كان ذلك منه فى وقت كان فيه عبد الله بن أبى اسحق يطعن على العرب أى يخطئ الفصحاء منهم إذا خالفوا ما استخرجه النحاة من القواعد . ومع ذلك فإن استخراج القواعد نفسه كان عملا وصفيا سواء من هذا النحوى أو من ذاك، لأنه كان تلخيصا للعلاقات النحوية القائمة بين المفردات فى الجمل. وإنا لنجد حتى فى وقتنا هذا فى الغرب من يطعن على أصحاب

اللغة فيقول أن النطق الشائع **It is me** خطأ والصواب أن يقال **It is I** يحدث ذلك فى ظل المنهج الوصفى القائم.

أما ربط الصوت بالمعنى فيتضح فى أبواب من النحو مثل الوقف (الذى يدل على تمام المعنى) وكالتشديد (الذى يدل على التعدية النحوية أو المبالغة الدلالية) وكزيادة الحروف (إذ يكون للزائد معنى) وكبعض لواصق التصريف مثل تاء التأنيث ونون التوكيد وألف الاثنين وواو الجماعة وتاء الخطاب وحروف المضارعة ونون النسوة وهلم جرا، وكالفروق النطقية بين الأصوات من حيث المخارج والصفات نحو التفريق بواسطة التفخيم فقط نين الفعلين الماضيين "صام" و "سام" وكذلك بين "طاب" و "تاب" وكالتفريق بالجهر والهمس بين "زار" و "سار" وكذلك "ذاب" و "ثاب" وقد كان للنحاة الأقدمين محاولات عظيمة فى حقل دراسة الأصوات اللغوية وارتباطها بالمعانى على نحو ما ذكرنا وحسبنا أن نعلم أن كتاب العين للخليل قد تم ترتيب مداخله على أساس صوتى.

وكان عمل النحاة العرب يشتمل على الكثير من المقارنات بين اللهجات تلحظ ذلك فى تفريقهم مثلا بين ما الحجازية وما التميمية وبين لهجات تفتح حرف المضارعة وأخرى تكسره كما لاحظ اللغويون فروقا نطقية بين القبائل كالكشكشة والعجعجة والاستنطاء والطمطمانية والتلتلة التى أشرنا اليها عند الكلام عن حركة حرف المضارعة . وفرقوا بين العربية الشمالية والجنوبية حتى قال أبو عمر "ما لسان حمير بلساننا" وردوا فى ذلك النوادر العديدة التى تدل على وعيهم بالفروق اللغوية بين اللهجات المذكورة.

ويظهر اشتغال الأقدمين بالتأريخ اللغوى فى دراستهم للتعريب والتوليد والدخيل بصفة عامة فلقد كانوا يفرقون بين ما دخل العربية قبل الإسلام وما طرأ عليها بعده ولكنهم (والحق أحق أن يتبع) لم تكن لهم حاسة تاريخية دقيقة لا فى اللغة ولا فى الأدب فكانوا ينسبون النصوص الى آدم وإلى عاد وثمود وإلى الجن و الشياطين وإلى هامات القتلى بل إن ذلك الحرمان من الحس التاريخى ظل يلازمهم

حتى فى نشاطهم المعجمى فلم نر لهم ضبطا تاريخيا لتطور الدلالة من عصر إلى عصر ولا إلى تطور بنية الكلمة من زمان إلى زمان.

ولقد ظهر الاتجاه المعيارى فى النحو بما ذكرنا من أمر ابن أبى اسحق وتصديه للفصحاء من أمثال الفرزدق ولكن هذا الاتجاه قوى فيما بعد عندما انتهى عصر الاستشهاد وعجز النحاة عن ترديد عبارة : "العرب تقول كذا" لأن العرب بعد عصر الاستشهاد" لم يكونوا أولئك الفصحاء الذين يمكن لدراسة لغتهم أن تؤدى إلى خدمة القرآن وهى الغاية الكبرى للنحو، ولما انتهى عصر الاستشهاد فى القرن الثانى الهجرى تحول النحو العربى من طابعه العلمى الذى يقوم على البحث ورصد النتائج وانشاء القواعد أمام التلاميذ وأصبح المطلوب منه أن يقول لهم هذه القاعدة (أو المعيار) وعليكم أن تطبقوا فالتعليم أساسه الطريقة المعيارية.

أما التفسير فله فى النحو العربى مظاهر متعددة ولعل أهم مظهر من مظاهر التفسير فى النحو هو التعليل. فلقد تكفل التعليل فى اللغة بتفسير الظواهر الآتية:

١ ـ كل عدول عن الأصل، ويظهر ذلك بصفة خاصة فى الإعلال والإبدال والنقل والقلب والحذف إذ تصبح العلة نفسها فى صورة قاعدة تبرر العدول عن الأصل بطلب الخفة كما فى:

أ ـ إذا تحركت الواور وانفتح ما قبلها قلبت ألفا نحو قام

ب ـ تنقل حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها نحو إقامة

جـ ـ إذا اجتمعت الواو والياء وسبقت أحداهما

بالسكون قلبت الواو باء وأدغمت فى الياء نحو طى

د ـ إذا سبقت تاء الافتعال بحرف مطبق قلبت طاء اصطبر

٢ ـ تعليل الأقيسة النحوية سواء أكان بعلة مناسبة أم بالطرد أم بالشبه يعد من قبيل التفسير أيضا كأن يقال:

أ ـ رفع نائب الفاعل حملا له على الفاعل بعلة الاسناد.

ب ـ بنيت ليس لا طراد البناء فى كل فعل غير متصرف.

جـ ـ أعرب المضارع لشبهه باسم الفاعل فى مطلق الحركات والسكنات وفى اختلاف المعانى عليه. فالأول قياس علة والثانى قياس طرد والثالث قياس شبه وكل ذلك تفسير للظاهرة. فهذه الأنوع من التفسير هى أظهر أنواع التفسير فى النحو العربى.

بقى مما اشتمل عليه النحو العربى ما سميناه تحقيق صدق النتائج. أرأيت إلى المسائل الحسابية والمعادلات الرياضية حين تخضع للاختبار ليعرف ما إذا كانت صادقة أو كاذبة ويجرى اختبارها بطريقة خاصة معروفة كاختبار الضرب بالقسمة والقسمة بالضرب واختبار الجمع بالطرح وبالعكس؟ كذلك كان النحاة العرب يعمدون إلى اختبار النتائج وكأنهم يختبرون صورية الجهاز النحو والصرفى الذى وصلوا إليه. وهكذا نشأ لديهم ما يسمى بالتمارين العملية. فقد يقولون صغ من ضرب على وزن جعفر أو على وزن طيلسان أو على وزن سفرجل وقد يفترضون أن رجلاً تسمى باسم "حتى" أو "فى" أو "لم" ويسألون عن كيفية تثنيته وجمعه وتصغيره والنسب إليه وكانوا أثناء شرحهم لأبواب النحو يوردون التراكيب الممنوعة ويشيرون إلى امتناعها ويعللون ذلك. وكان تطبيق قواعدهم على هذه الفروض المستحيلة وغير المستعملة يقوى اقتناعهم بصدق قواعدهم والنتائج التى وصلوا إليها فى تحديد النظام النحوى للغة العربية.

فما مغزى كل أولئك؟

الجواب أنه ليس من المتصور أن يكون القديم والحديث مختلفين فى كل التفاصيل والدقائق وأن الاختلاف بينهما إنما هو اختلاف فى تركيز الاهتمام على طابع بعينه يعرف به القديم أو الحديث مع عدم خلوه مما عدا هذا الطابع، ولكن وجود طابع ما وجودا عمليا لا نظريا فى المنهج لا يبرر دعواه له إلا بمقدار ما يصح أن ننسب الاشتراكية إلى الاسلام لمجرد أن الإسلام عنى بالعدالة الاجتماعية بطريقته الخاصة. وهكذا لا ينبغى أن ننسب إلى النحو العربى أنه خالص للوصفية أو للمعيارية أو للتأريخ أو للتجريد وإن كان فيه قسط مهم من كل واحد من هذه المناهج التى تميز بعضها عن بعض فى العصر الحديث. هذا ما ينبغى أن يكون واضحا عند

نسبة المنهج إلى الحداثة. فالحداثة فى المنهج مسألة تغيير وإن لم تتبرأ تماما من مفهوم الزمن.

ومن معانى الحداثة حين تنسب إلى اللغة العربية ما يتصل بالنتائج وإذا اتصلت الحداثة بالنتائج فقلنا مثلا: "النتائج الحديثة" أو "نتائج البحوث الحديثة" أو "معطيات البحث الحديث "فإن" الحداثة "عندئذ تنصرف إلى معنى الابتكار فتكون ألصق به منها بمفهوم الزمن. وهنا لابد أن يقوم طباق بين الحداثة والتراث (أى بين الابتكار والتراث) أكثر مما يقوم بين الحداثة المنسوبة إلى المنهج وبين التراث (أى بين التغيير والتراث). لقد استوت الدراسات العربية على سوقها فى القرن الثانى الهجرى وما كادت مطالع القرن الرابع تهل حتى آتت أكلها وبدت ثمراتها ناضجة يانعة إذ أمدتها التربة الطبية برحيق المنابع الإسلامية بعد أن أضيفت إليه عناصر حيوية من ثقافات أخرى أجنبية ولم يكد القرن الرابع ينتهى حتى وقر فى عقول الناس أو الأول لم يترك للآخر شيئا وفاخر أبو العلاء المعرى بأنه سيأتى بما لم تستطعه الأوائل وبدا التراث العربى فى عمومه عصر النقول والشروح والحواشى والتعليقات والكتابة الموسوعية وبدت الحياة فى طابعها الغالب اجترارا لما مضى واعادة لترتيب الأثاث دون إضافة قطعية جديدة إليه. وزعم الزاعمون أن النحو نضج حتى احترق فأصابت عدوى التواكل كل فروع المعروفة العربية. ثم جاءت الطامة الكبرى بتغلب الترك على مقاليد الحكم فى البلاد العربية فقضوا بجهلهم قضاءا مبرما على ما بقى للعرب من طاقة وما كان لهم من ملكة فأقفلوا باب الاجتهاد وانزوت المعارف الإسلامية فى عدد من المساجد (أو قل المتاحف) لا تتعداها كالأزهر والزيتونة والقرويين فكان أقصى ما يصل إليه المرء من علم أن يحسن التحصيل لما يقرأ وأما الإضافة والابتكار فهيهات، لأن الفكر العربى أصبح بركة راكدة آسنة لا تنمو فيها إلا طحالب الجهل والتخلف.

ثم اعتل الرجل المريض (تركيا) ونشطت ذئاب الاستعمار من حوله كل يريد نصيبه من القطيع الذى كان يرعاه فكان الاتصال المباشر لأول مرة بين الولايات التركية وبين الغرب وعرف العرب أن فى الدنيا علوما غير علومهم وأنهم قد تخلفوا

عن الركب وأن بقاءهم مرهون بالتلمذة على المعارف الحديثة فأرسلوا البعوث إلى الغرب تتلقى وتنقل وتغرس البذور الجديدة فى التربة التى طال إهمالها فأنبتت البذور ونما النبات نموا بطيئا ومازال فى دور النمو فلا يظهر من ثمره إلا البواكير وما أقلها.

وما دمنا الآن فى عصر البواكير فإن لنا أن نسأل عن طبيعة ما يمكن أن نصل إليه من النتائج الحديثة. وسنرى عندئذ أن هذه النتائج تقع فى حدود الأنواع الآتية:

١ ـ بواكير عربية نبتت فى أرض التراث.

٢ ـ أفكار أجنبية حديثة وفى التراث ما يشبهها.

٣ ـ فهم عربى حديث يصحح فهما قديما فى التراث.

١ ـ بواكير عربية نبتت فى أرض التراث.

فى التراث العربى أفكار لا تتنافى مع النتائج الحديثة تنافيا تاما ولكنها تختلف عن هذه النتائج ومن ذلك على سبيل المثال.

ا ـ أن أقسام الكلم التى وردت فى التراث لا تتنافى مع التقسيم الحديث للكلم الذى ورد فى كتابى: اللغة العربية معناها ومبناها مثلا إذ ما يزال الاسم أحد أقسام الكلم وكذلك الفعل وما زالت الحروف كلها واقعة تحت عنوان الأداة. ولكن الفارق المهم بين التقسيمين أن النظرة الحديثة كشفت عن عموم فى مفهوم الاسم لدى النحاة شمل أقساما أخرى كالصفات والضمائر والظروف وأن مفهوم الفعل قد اتسع لديهم أيضا حتى شمل بعض الخوالف والنواسخ وأن مفهوم الأداة فى الفهم الحديث يشمل الحروف والنواسخ كما فهمها النحاة.

ب ـ ومن ذلك أيضا ما يتعلق بأصل الاشتقاق. فعلى الرغم من أصرار النحاة البصريين ومنهم الخليل بالطبع على أن أصل الاشتقاق هو المصدر وجدنا الخليل بينى كتاب العين وهو أول معجم فى العربية على مداخل من الحروف الأصلية الثلاثة و يورد تحت هذه الحروف كل مشتقات المادة مما يدعونا إلى الزعم بأن الخليل قد عد الأصول الثلاثة هى أصل الاشتقاق عملا وأن لم يصرح بذلك،

وأن النظرة التى اشتمل عليها كتاب اللغة العربية المذكور تجعل الأصول الثلاثة هى أصل الاشتقاق وهى أولى بذلك من المصدر الذى قال به البصريون والفعل الماضى الذى قال به الكوفيون.

ج ـ لقد أنشأ النحاة نظاما كاملا من الصيغ الصرفية للكلمات المشتقة فى اللغة العربية ونسبوا إلى الصيغ المجردة معانى وظيفية كالطلب والمطاوعة والتكلف .. الخ. وتكلموا عن الميزان الصرفى للكلمة وكانوا يعدون الصيغة الصرفية ميزانا للكلمة ورأوا أن الكملة إذا حذف أحد حروفها حذف ما يقابله من صيغتها وجعل الباقى ميزانا لها ففعل الأمر من وعد هو (عد) وما دامت الواو وهى فاء الكلمة فى الفعل قد حذفت من الصيغة فيصير وزنه (عل) بكسر العين وسكون اللام ولكنهم لم يفر قوا تفيقا نظريا بين الصيغة والميزان فرأوا أن "قال" و "رمى" ونحوهما على وزن (فعل(دون مراعاة لما فيها من اعلال. وقد توصلت النظرة الحديثة مع احترامها التام لنظام الصيغ إلى أن هناك فرقا بين الصيغة والميزان لأن الصيغة قالب صرفى والميزان مقياس صوتى بمعنى أن فعل الأمر (عد) ينبغى أن تكون صيغته (افعل) بسكون الفاء وكسر العين ولكن ميزانه (عل) كما سبق. فالصيغة تجعله من باب ضرب والميزان يعترف بالحذف الذى حدث فى الصيغة. والصيغة صرفية والميزان صوتى.

٢ ـ أفكار أجنبية حديثة وفى التراث ما يشبهها:

ذكرنا منذ قليل أن للتفسير فى النحو العربى مظاهر متعددة أهمها التعليل وعددنا من صور التعليل تعليل الإعلال والابدال والنقل والقلب والحذف وكذلك تعليل الأقيسة النحوية ونضيف هنا ظاهرة أخرى من ظواهر النحو العربى يطلقون عليها التفسير وعلى ركنيها المفسر والمفسر بالكسر والفتح على الترتيب، فهناك أدوات تختص بالدخول على الأفعال مثل "إذا" و "إن" و "لو" ولكن الاعتبارات الأسلوبية قد تقضى أحيانا بأن تأتى هذه الأدوات وبعدها الاسم المرفوع فى مكان بالفعل على عكس ما يقضى به أصل وضع الجملة وهنا يخف النحاة إلى رد الجملة إلى أصلها فيقدرون فعلا تدخل عليه هذه الأدوات ويجعلون الفعل

المذكور بعد ذلك تفسيرا لهذا الفعل المقدر وهذا شبيه بقولهم: "لابد من دليل يدل على المحذوف غير أن الظاهرة هنا ظاهرة إضمار لا حذف.

غير أن تشوسكى يباهى كما سبق بأنه حول البحث اللغوى من منهج وصفى تصنيفى خالص يرد عليه اللبس فى الكثير من الحالات إلى نحو توليدى تحويلى يضم إلى التصنيف عنصرا آخر هو الطاقة التفسيرية بمعنى أن البنية السطحية (المستعملة) إذا تطرق اليها اللبس بتعدد ما يحتمل أن يكون مقصودا بها فإن النحو التوليدى يرجع هذه البنية الاستعمالية السطحية إلى بنية عميقة بعينها فيذهب عنها بقية ما تحتمله من المعانى. هذه الخاصية بعينها موجودة فى النحو العربى ولكنها ترتدى عباءة التأويل وعمامة التقدير ويمكن أن نسوق لذلك الشواهد الآتية:

١ ـ قال تعالى﴿ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟ رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ (آل عمران).

فمن الذى يحاول الشيطان أن يخوفه؟ سيقول قائل إن الأمر واضح لأن الشيطان يخوف أولياؤه. ولكن القرائن تحدد بنية عميقة أخرى يحاول الشيطان فيها أن يخوف المسلمين من أوليائه فالتقدير "أنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياؤه" بدليل النهى الموجه إلى المؤمنين ألا يخافوهم بعد أن سمعوا من الشيطان (الناس الأولين) أن الناس (الآخرين) قد جمعوا الجموع لمهاجمتهم.

٢ ـ قال تعالى :﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ (آل عمران: ١٨).

أن بنية الجملة من الناحية النحوية البحتة لا تمنع أن يكون الملائكة وأولو العلم معطوفين على الضمير (هو) فتكون الطائفتان آلهة مع الله (تعالى الله عن ذلك)ولكن القرائن فى الجملة تشير إلى بنية عميقة لها تجعل الطائعتين معطوفتين على لفظ الجلالة (الله) وبذلك تشهدان معه بتفرده بالألوهية والدليل على ذلك إفراد لفظ (قائما) والنص مرة ثانية على أنه "لا إله إلا هو العزيز الحكيم".

٣ ـ قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾ (يونس: ٤٤).

والتركيب لا يمنع أن تكون أنفسهم توكيدا للناس ولكن النظر فى الآيات الأخرى فى القرآن (وهو يفسر بعضه بعضا) يجعل "أنفسهم" مفعولا مقدما للفعل" يظلمون" بدليل قوله تعالى فى آية أخرى: ﴿ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴾ (الأعراف : ١٧٧).

٤ ـ قال تعالى : ﴿ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ (النمل: ٤٠).

فهل الذى فى الآية من قوله: "آتيك" هو اسم فاعل مضاف إلى الكاف أو فعل مضارع ناصب لمحل الكاف؟ لا يظهر ذلك من البنية السطحية للجملة ولكن البنية العميقة تبين أنه لو كان اسم فاعل مضافا لدل على الماضى ولكن الذى عنده علم من الكتاب يعرض على سليمان أمرا مستقبلا.

٥ ـ قال تعالى: ﴿ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ﴾ (البقرة: ١٠).

فهل قوله تعالى "فزادهم الله مرضا" خبر أو دعاء؟ لو كان ذلك خبرا للزم فى الجملة الأولى أن تضاف اليها" كان" فيقال كان فى قلوبهم مرض. وبذلك يصير المعنى على الدعاء.

٦ ـ قال تعالى : ﴿ لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ﴾ (الرعد: ١٤).

ليس فى التركيب ما يمنع أن يكون الواو فى يدعون راجعة إلى الاسم الموصول (الذين) ولكن البنية العميقة (أى المعنى المراد) يحتم تقدير مفعول به هو ضمير الغائبين ويكون التقدير عندئذ" والذين يدعونهم من دونه" فيكون الذين لا يستجيبون هم الشركاء المزعومين.

٧ ـ قال تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾ (الأحزاب: ٥).

ليس فى التركيب ما يعين ما إذا كان لإخوانهم أو آبائهم ولكن الآباء غير معلومين فلا يمكن أن يكون غير ا لمعلوم أخا فالبنية العميقة (كما نسميها تشوسكى) تجعل الأبناء هم لإخوان فى الدين.

نفهم من هذا أن النحو العربى ليس خلوا من الطاقة التفسيرية ولكنه يسمى مظاهرها أسماء مختلفة يمر بها المرء دون أن يرى شبها بينها وبين مثيلاتها فى نتائج البحث الحديث. ولكنه حين يدقق النظر لابد أن يرى الشبه وبين الشيخ محمد بالعمامة وبنيه وعلى رأسه القبعة.

٣ ـ فهم عربى حديث يصحح فهما قديما فى التراث:

أول ما ينبغى أن نعترف به أن السلف من علمائنا أبلوا بلاء حسنا فى بناء صرح العلوم العربية وأن النتائج التى وصلوا إليها تعد رائعة من جهتين:

أولا: أن نقاد التراث العربى من المستشرقين يعترفون طائعين أو مرغمين بأن العرب إذا كانت لهم فلسفة حقيقية فهذه الفلسفة هى دراساتهم اللغوية وبخاصة النحو بما اشتمل عليه من نظام استدلالى لا يمكن أن تصل إليه إلا عقلية ذات مقدرة فائقة على التجريد.

ثانيا: أن هذه البنية التى أقاموها صمدت للتطبيق منذ القرن الثانى للهجرة حتى هذه اللحظة فإذا كنا نلقى على اللغة أضواء جديدة فنستخرج منها نتائج حديثة فلا شك أن قدرتنا على ذلك نشأت من حسن تحصيلنا لأفكارهم بقدر ما جاءت عن استيعابنا لطرق النظر العلمى الحديث. هذه شهادة يقتضينا الانصاف أن نبدأ بها والا بدا كل شئ نقوله بعد ذلك ضربا من انكار الفضل ومن الوقوع فى شرك الغرور. نعوذ بالله من هذا وذاك. وسنحاول فيما يلى أن نلقى الأضواء على ما يسميه الأقدمون:

أ ـ التوسع ب ـ الزمن.

جـ ـ الربط د ـ طلب الخفة

هـ ـ ظواهر أخرى متفرقة أشاروا اليها سنجمعها تحت عنوان الاستعمال العدولى.

أ ـ التوسع: قد يكون الخروج على القاعدة فى التعبير نادرا أو قليلا أو شاذا أو لغة قوم بعينهم فيسمى كل نوع منه باسمه الذى أوردناه هنا ولكن الخروج عن القاعدة قد يكون كثيرا كذلك. وفى هذه الحالة ينسب إلى التوسع. وفى الأصول العامة للنحاة أو ما أطلقنا عليه فى كتاب "الأصول" اسم "قواعد التوجيه" قاعدة تقول: "يتوسع فى الظرف والجار والمجرور ما لا يتوسع فى غيرهما" وهكذا ينشئ منهج النحاة قاعدة للخروج على القواعد . وتروى عنهم أحيانًا بعض العبارات التى تنسب هذه المخالفة أو تلك من غير ما ذكرنا إلى التوسع. وقد نظرت فى أنواع الخروج على القاعدة فى اللغة العربية فوجدت ما يلى:

الخروج على القاعدة

باهدار القرينة

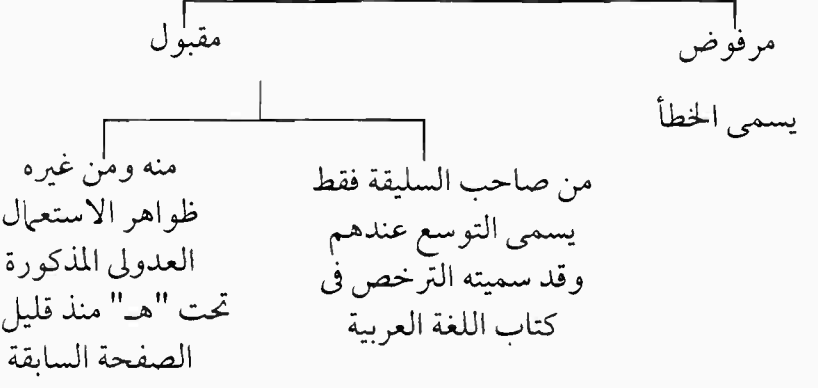

والذى يهمنا الآن هو الترخص. والترخص مرتبط بالقرائن النحوية وهى البنية والاعراب والمطابقة والربط والرتبة والتضام والأداة والنغمة وهذه لا وجود لها إلا فى الكلام المنطوق. والترخص له الشروط الآتية:

١ ـ أن يكون من صاحب السليقة ومن ثم لا يجوز منا نحن فى الوقت الحاضر ولهذا يعدّ الترخص من مفاهيم تحليل التراث ولا يصدق على ما بعد عصر الاستشهاد.

٢ ـ من قواعد التوجيه المنهجى لدى النحاة قولهم "الرخصة مرهونة بمحلها" أى أنها لا يقاس عليها فى الاستعمال.

٣ ـ شرط الترخص أمن اللبس أى أن القرينة التى يجرى الترخص فيها لا يمكن أن يتوقف عليها المعنى فلو توقف عليها المعنى امتنع الترخص.

٤ ـ لا يفهم الترخص إلا فى ظل تضافر القرائن ولا يمكن أن تكفى قرينة مفردة أيا كانت لبيان المعنى فالفاعل مثلا يعرف أنه فاعل بالقرائن الآتية:

(١) أنه اسم (وهذه قرينة البنية).

(٢) مرفوع (وهذه قرينة الإعراب).

(٣) سبقه فعل (قرينة الرتبة).

(٤) وهذا الفعل مبنى للمعلوم (وهذه قرينة البنية مرة أخرى).

(٥) ودل على من فعل الفعل أو قام به الفعل (وهذه قرينة الاسناد).

فهذه خمس قرائن تضافرت على بيان المعنى النحوى، فلو اتضح المعنى بأربع منها لأمكن الترخص فى الخامسة لأن المعنى لا يتوقف عليها. وقد حدث الترخص فى التراث فى كل القرائن سواء أكان ذلك فى القرآن أم فى الحديث أم فى الشعر أم فى كلام العرب. وإليك الشواهد على ذلك.

البنية: قال تعالى: ﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ١ ـ ٢) فترخص فى بنية "سيناء" فصيرها سينين وقد أمن اللبس بإضافة لفظ الطور إليها.

الإعراب: قال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (المائدة: ٦٩) فعطف "الصابئون" وهو مرفوع على اسم أن وموضعه نصب. ولا لبس.

المطابقة: قالت تعالى: ﴿ إِن نَّشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةً فَظَلَّتْ أَعْنَٰقُهُمْ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴾ (الشعراء: ٤) والأعناق توصف بأنها "خاضعة ولا لبس".

الربط: قال تعالى: ﴿ وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا ﴾ والمعنى لا تجزى فيه نفس فحذف الرابط ولا لبس.

الرتبة: قال تعالى: ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ (البقرة: ٤٨)فجملة" ويصنع الفلك جملة حالية مقترنة بواو الحال متقدمة على صاحب الحال وهو الهاء فى عليه. ولا لبس.

التضام: قال تعالى: ﴿ وَإِنَّ كُلًّا لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (هود:١١١)فحذف مدخول "لما" وهو فعل مضارع مبنى للمجهول تقديره "يوفوا ودليل الحذف قوله "ليوفينهم". ولا ليس لوجود دليل الحذف أو أن اللام تكرت بعد زيادة "ما" وإغناء اللام الثانية عن الأولى أو توكيدها لها ومثل ذلك قوله تعالى: "إن كل نفس لّما عليها حافظ"..

الأداة: قال تعالى : ﴿ وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَىَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴾ (الشعراء: ٢٢) والكلام استفهام انكارى حذفت منه الأداة والتقدير "أو تلك نعمة" وقرينة الحذف حالية.

أما فى الشعر فأكثر ه يسمى الضرائر وفى جوائز الرخصة للمحدثين فى الشعر خلاف. ولقد ذهب النحاة شتى المذاهب فى علاج هذه الظاهرة ولكن الجديد فى النظر إليها هو ضم شتاتها تحت عنوان واحد وربط ذلك يتضافر القرائن وتسخير هذا الفهم لتبرير الكثير مما لم يمنحه النحاة جواز المرور ولا سيما من كان من النحاة يطعن على العرب.

ب ـ الزمن : حين تناول النحاة مفهوم الزمن ربطوه بصيغة الفعل فقالوا إن الفعل يدل على الحدث بأصوله الثلاثة ويدل على الزمن يصيغته وجعلوا الأفعال ثلاثة أحدها الماضى وهو عندهم يدل بحكم صيغته وتسميته على ما مضى والآخران هما المضارع والأمر. وجعلوا كلا منهما يدل على الحال أو الاستقبال بحسب القرينة وكان هذا فى عرفهم هو نظام الزمن. ولكن الأفعال كلمات مفردة والنشاط اللغوى ليس كلمات مفردة لا يمكن أن يكشف ظواهر الزمن فى السياق أى أن الزمن الصرفى لا يغنى شيئا عند ارادة فهم الزمن النحوى. من هنا تصدى كتاب اللغة العربية معناها وبناها لدراسة الزمن النحوى فى معترك السياق فخرج من ذلك بالنتائج الآتية:

(١) أنه لابد لدراسة الزمن النحوى من دراسة مفهوم آخر هام هو مفهوم الجهة التى تبين اتصال الحدث وانقطاعه وتجدده واستمراره وقربه وبعده وبساطته ونحو ذلك.

(٢) أن التعبير عن الجهة يتمثل فى عناصر لغوية تصاحب الفعل فى الاستعمال منها:

(أ) النواسخ (كان وأخواتها).

(ب) الجوازم.

(ج) قد والسين وسوف.

(٣) أن المزاوجة بين الفعل والعنصر المعبر عن الجهة ستوضح لنا الفروق الزمنية بين مركبات فعلية (أى أفعال مركبة): مثل: كان فعل، كان قد فعل، كان يفعل، قد فعل، مازال يفعل، ظل يفعل، فعل، كاد يفعل، طفق يفعل، يفعل، سيفعل، سوف يفعل، سيظل يفعل. وكل ذلك فى الجملة المثبت فقط.

(٤) يبدو من ذلك أن الزمن فى اللغة العربية أوسع مما تصوره النحاة وأن النواسخ الفعلية هى فى الحقيقة أدوات للتعبير عن الجهة لأنها لا تشتمل على معنى الحدث.

ج ـ الربط: ومن الأضواء الحديثة على المادة القديمة أيضا ما أراه فى فكرة الربط فى سياق النص العربى. لقد عدّ النحاة من وسائل الربط الأمور الآتية:

١ ـ الضمير ٢ ـ الإشارة

٣ ـ ال ٤ ـ إعادة اللفظ

٥ ـ اعادة المعنى

فالضمير نحو "وظن داود أنما فتناه" والإشارة نحو "ولباس التقوى ذلك خير" أى هو خير والألف واللام نحو "فإن الجنة هى المأوى" أى مأواه واعادة اللفظ نحو:"واتقوا الله ويعلمكم الله" واعادة المعنى نحو: "تحيتهم فيها سلام".

ولكن إعادة النظر فى ظاهرة الربط أوضحت أن هناك ربطا بالموصول (حرفيا كان أم اسميا) وبالوصف وبتكرار صدر الجملة عند طولها أو إرادة تأكيد الصدر.

فمن الربط بال الموصولة (وصلتها لا تكون إلا صفة صريحة) قوله تعالى:﴿ أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلْيَوْمَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ (مريم: ١٩)أى لكنهم وانما أعرض عن الضمير إلى أل وصلتها لارادة وصفهم بالظلم وهذا لا يتحقق بواسطة مجرد الضمير. ومن الربط بالموصول الاسمى (الذين) قوله تعالى ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (التوبة: ٩٠) أى جاءوا وقعدوا ومن الربط بمن الموصولة قوله تعالى : ﴿ قَالَ إِنَّ فِيهَا لُوطًا ۚ قَالُوا۟ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَن فِيهَا ﴾ (العنكبوت: ٣٢) أى نحن أعلم به ومن الربط بالوصف قوله تعالى: ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ (التوبة: ١٢) ومن الربط بتكرار صدر الجملة لطولها قوله تعالى ﴿ وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ (البقرة: ٨٩)فربط بتكرار "لما جاءهم" وبقوله "على الكافرين" أى عليهم. ومن تكرار صدر الجملة لتأكيده قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ ﴾ (الروم: ١٤) أى فى هذا اليوم بذاته.

د ـ طلب الخفة: ذكرت منذ قليل أن من مظاهر الطاقة التفسيرية فى النحو العربى ظاهرة التعليل لأحكام النحو وأقيسته. ولعل طلب الخفة أن يكون أوسع العلل العربية مجال تطبيق وحسبه أنه يجد اعترافا مؤكدا من علم اللغة الحديث إذ يجد لنفسه مكانا هاما بين مبادئه تحت عنوان: Economy of effect. والذى يبدو لى حين أفكر فى أمر اللغة العربية أن الذوق الصياغى العربى يرسم حدودا واضحة لما يعده خفيفا ولما يعده ثقيلا ومن هنا رأينا ظواهر التغيير الصوتى فى الدراسات اللغوية العربية بمختلف مستوياتها (الأصوات ـ الصرف ـ النحو ـ المعجم ـ الأسلوب) تقوم على كراهية توالى أمور معية والسماح بتوالى أمور أخرى. وقد أصبحت كراهية التوالى هذه منطلقا لطلب الخفة. ويمكن بصورة عامة أن نقول أن اللغة العربية:

(١) تكره توالى المثلين.

(٢) وتكره توالى المتقاربين.

(٣) وتكره توالى المتنافرين.

ولكنها ترحب بتوالى المتخالفين وتسعى سعيا إلى توالى المتناسبين وإلى الاختصار والتعويض. فأما كراهية توالى المثلين فتظهر فى أمور مثل ادغام المثلين فى فعل مثل ردّ (أصله ردد) وحذف أحدى التائين فى "ولا تنابزوا بالألقاب" وحذف نون الرفع لتوالى ثلاث نونات فى "لتبلون فى أموالكم وأنفسكم" والتخلص من التقاء الساكنين واشباع هاء الغائب بين متحركين للحيلولة دون توالى المتحركات وبناء الفعل الماضى الثلاثى المسند إلى تاء الفاعل على السكون لكراهية توالى أربع متحركات فيما هو كالكلمة الواحدة نحو "ضربت".

وأما كراهية توالى المتقاربين فتتمثل فى جعل الدال الساكنة والتاء فى "قعدت" على صورة التاء المشددة وهذا ما يعرف باسم ادغام المتقاربين ومنه ادغام اللام الشمسية فيما يليها من حروف خاصة فى أول الاسم الذى دخلت عليه (وهى التاء والثاء والدال والذال والراء والزاى والسين والشين والصاد والضاد والطاء والظاء والنون وأخيرا تدعم فى اللام من قبيل ما سبق من ادغام المثلين) ومنه اجتماع الحركة مع الواو أو الياء اللينة فى أحد اصول الكلمة عند انفتاح ما قبلهما أذ تقلبان ألفا.

وأما كراهية توالى المتنافرين فمنها بعض ظواهر الإعلال بالقلب فحين تجتمع الواو والياء وتسبق أحداهما بالسكون مثل طىّ وريّان وسيّان والاعلال بالحذف كما فى عد وزن ومنها بعض ظواهر الاعلال بالنقل كما فى إقامة (أصلها اقوام) لأن ما بين الكسرة التى على الهمزة وبين الواو حرف ساكن هو القاف (والحرف الساكن حاجز غير حصين فى منهجهم) فكأن الكسرة والواو قد التقتا وهما متنافرتان. وهكذا تنقل حركة الواو إلى الساكن الصحيح قبلها وتقلب الواو ألفا لتحركها أصلا وانفتاح ما قبلها حالا. ومن كراهية التقاء المتنافرين أيضا ما نراه من كراهية تنافر الحروف فى الكلمة والإشارة بحسن التأليف مما كان يعدّ من أمارات فصاحة الكلمة فى دراسة البلاغة العربية وقد ترتب على ذلك تقسيم الكلمات أيضا إلى شعرية تحلو للسمع وغير شعرية. وعيب على المتنبى استعمال لفظ " الجرشى" وكل

تأليف حسن لحروف الكلمة فمرده إلى توالى المتخالفين لأن كل حرفين متواليين يختلفان فى المخرج و فى الصفة أو فيهما فهذا يعطيهما خفة عند النطق لا تكون للمثلين أو المتقاربين أو المتنافرين كما ذكروا فى كلمة مثل "الهعخع" وهو اسم نبات صحراوى.؟

وأما توالى المتناسبين فإننا نعد منه الظواهر الآتية:

أ ـ اعراب الجوار كما فى "حجر ضب خرب" بجر الصفة على الجوار وكذلك قراءة من قرأ " عليهم ثياب سندس خضر" بجر خضر.

ب ـ مراعاة القافية كقول امرئ القيس:

كأن سبيرًا فى عرانين وبله كبير أناس فى بجاد مزمل

بجر "مزمل" وحقها الرفع.

جـ ـ تقدير الحركة الإعرابية لضمان المناسبة الصوتية كما فى هذا كتابى فلفظ "كتابى" مرفوع بضمة مقدرة على آخره منع من ظهورها اشتغال المحل بحركة المناسبة.

د ـ تفخيم اللام وتفريقها فى لفظ الجلالة بحسب الحركة التى قبلها كما فى : يمين والله ـ والله ـ بالله.

هـ ـ ضم ضمير الغائب المتصل وكسره بحسب ما قبله أيضا نحو:

هذا كتابه ـ وأعطانى كتابه ـ وقرأت فى كتابه.

فعلامة الإعراب التى على الباء حددت "بالمناسبة" حركة الهاء.

و ـ ظواهر الإبدال من تاء الافتعال فإذا سبقت التاء بحرف من حروف الاطباق (ص ض ط ظ) انقلبت "بالمناسبة" إلى طاء ، وإذا سبقها دال أو ذال أو زاى تحولت إلى دال وبذلك يصبح:

اصتبر = اصطبر اضتر = اضطر

اطتلع = اطلع اظتعن = اظطعن

ادتعى = ادّعى اذتكر = ادّكر

ازنتهر = ازدهر

وهناك ظواهر أخرى للمناسبة لا داعى للاطالة بذكرها.

وأما الاختصار فمن ظواهره فى اللغة العربية العناصر التركيبية لأن كل عنصر منها ينوب عن كلمة أو كلام أطول منه، لاحظ المقابلات الآتية:

رجلان = رجل ورجل رجال = رجل ورجل ورجل ...

قرشى = منسوب إلى قريش

كتابه = كتاب مذكر غائب مفرد

فمن هذا نجد أن العناصر التركيبية من ضمائر ولواصق وظروف وأدوات الخ هى نوع من الاختصار فى اللغة. ومن ظواهر الاختصار أيضا الحذف لأنك إذا سئلت كيف حالك فإنه يكفى أن تقول: "بخير" أو "أنا بخير" والشرط الوحيد للحذف أن يقوم دليل على المحذوف مخافة اللبس أو الغموض أو عدم تمام المعنى. ومن الاختصار قصر الممدود كما تقول فى "دعاء" "دعا" وفى "بناء" "بنا" . ومنه أيضا اختزال لمد فى بعض المواطن كما فى:

اختزال مد "أنا" فى "أنا قائم".

اختزال مد "الياء" فى "وإذا مرضت فهو يشفين".

اختزال مد "الياء" فى النداء نحو : ربّ، أبت

اختزال مد "ما" فى "علام" و "الام".

وتكون هذه الظاهرة دائما مقترنة بكثرة الاستعمال.

وأما التعويض فيكون عند بقاء الكلمة على حرف أو حرفين فتعوض لتطول وعند حذف حرف من حروف الكلمة وعند حذف المضاف إليه فى الكلام فالأول نحو "لمه" و "علامه" و "فيه" والثانى نحو "اقامة" و "احالة" و "اطالة" والثالث

نحو وأنتم حينئذ تنظرون إذ جاء التنوين فى حينئذ عوضا عن المضاف إليه وهو جملة مقدرة تفسرها الجملة المذكورة قبلها أى "حين إذ بلغت الحلقوم".

هـ ـ الاستعمال العدولى: الخوض فى الاستعمال العدولى دراسة أسلوبية خالصة لا علاقة لها بالقواعد إلا أن هذا النوع من الاستعمال عدول عن القواعد. ولقد سبق أن شرحت أنواع الخروج على القاعدة باهدار القرينة النحوية فرددته إلى ثلاثة أنواع هى الخطأ والترخص والاستعمال العدولى وأوردت بعض الشواهد على الترخص ووعدت بالكلام عن الاستعمال العدولى بعد ذلك. وهذا هو المكان لبيان ذلك.

إذا أردنا أن نعرف المقصود بالاستعمال العدولى فإن ذلك يقتضى أن نعرف نقطة البداية التى بعد هذا الاستعمال بعدها عدولا عنها. ونقطة البداية هى الاستعمال الأصولى الذى يحافظ على ما جرده النحاة من أصول وضع أو أصول قاعدة. فلقد كان من أصول النحاة أن كل مبنى له معنى يؤديه بحسب الأصل ويسمى ذلك معناه الأصلى وأن المبنى الواحد يرتبط ارتباطا عرفيا بمعناه فلا يحمل بحسب الأصل وأن المبنى الواحد يرتبط ارتباطا عرفيا بمعناه فلا يحمل بحسب الأصل أى معنى غيره ومن أصولهم أيضا أن لكل باب نحوى حركة إعرابية يعرف بها وأن العنصرين اللغوين إذا ارتبط احدهما بالآخر ارتباط تبعية فى اللفظ أو متابعة فى المعنى وقعت بينهما مطابقة فى بعض المجالات ومن مطابقة الرابط الرتبة وهى الأصل حتى إن كانت غير محفوظة وأن بعض الكلمات تختص بالدخول على كلمات أخرى وأن الأصل فى الاستعمال الذكر والوصل وعدم الزيادة .. الخ. فإذا التزم الاستعمال بهذه الأصول كان استعمالا أصوليا ولكن القرائن النحوية (وهى التى تدور حولها هذه الأصول) ربما شهدت ترخصا فيها كما سبق أن تناولها أصحاب الأساليب الأدبية بالتصرف فيها فعدلوا بها عن أصلها لخلق آثار ذوقية ونفسية معينة يصير بها الأسلوب الأدبى ذا تأثير معين. ولقد سبق أن ذكرنا أن القرائن هى البنية والإعراب والمطابقة والربط والرتبة والتضام والأداة والنغمة فى الكلام المنطوق. ويمكن العدول عن الأصل عدولا أدبيا مقبولا مستحبا فى كل واحدة من

هذه القرائن على الرغم من أن هذا العدول مخالفة لا شك فيها لأصولّ اللغة. وفيما يلى بيان المقصود بهذا الاستعمال العدولى:

أولاً- بالنسبة لقرينة البنية:

يعدل عن الاستعمال الأصلى لبنية الكلمة بالوسائل الآتية:

١ ـ النقل وقد اعترف به النحاة فى اسم العلم وفى التمييز المتقول وكان ينبغى أن يعترفوا به ظاهرة عامة فى اللغة فالمصدر قد ينقل إلى استعمالات فعل الأمر وبعض الموصولات مثل من وما وأى تنقل إلى معانى الشرط والاستفهام والاسم الجامد قد ينقل إلى استعمال الأوصاف فيصير خبرا نحو "هذا رجل" كما ينقل المصدر إلى استعمال الأوصاف فيأتى حالا نحو "ثم أدعهن يأتينك سعيا" أى ساعيات.

٢ ـ قد ينتقل اللفظ من المعنى الأصلى إلى المعنى المجازى فالمجاز نقل للفظ بحكم تعريفه إذ تنسى العلاقة العرفية التى بين اللفظ ومعناه الأصلى وتحل محلها علاقة فنية هى أساس فكرة المجاز. وهذه العلاقة الفنية قد تكون مشابهة أو زمانا (ما كان وما سيكون) أو مكانا (الحالية والمحلية) أو كمّا (الكلية أو التعويضية) أو علة (السببية والمسببية) والمجاز فى الحالة الأولى "المشابهة" لغوى وفيما يليها مجاز مرسل.

٣ ـ ومن انتقال اللفظ ايضا فكرة التضمين وهى معروفة لدى النحاة فقد يضمن اللازم معنى المتعدى أو المتعدى معنى اللازم أو يضمن اللفظ معنى لفظ آخر غيره نحو" استحبوا الكفر على الايمان" أى فضلوه.

٤ ـ ومن استعمال البنية استعمالا عدوليا تسخير اللفظ لتوليد المعنى الأدبى بواسطة جرسه أو موقعه من الكلام فالمعروف أن كلمة "مثل" كلمة مبهمة لا يكتمل معناها إلا بالإضافة ولكن أبا فراس أعطاها شحنة عاطفية هائلة فى قوله:

نعم أنا مشتاق وعندى لوعة ولكن مثلى لا يذاع له سر

وقد يكون ذلك بتكرار اللفظ كما فى الحديث الذى سخر لفظ "الأم" لا فهام الأهمية القصوى والإصرار إذ قال رجل للنبى صلى الله عليه وسلم: "من أحق الناس بحسن صحابتى"؟ قال: "أمك" قال: "ثم من؟" قال: "أمك" قال: ثم من؟ "قال "أمك! قال "ثم من؟" قال: "أبوك". ثم أنظر إلى أثر التنكير فى آيات مثل: ﴿ مِّن قَبْلِ أَن نَّطْمِسَ وُجُوهًا فَنَرُدَّهَا عَلَىٰٓ أَدْبَارِهَآ ﴾ (النساء : ٤٧).

﴿ وَلَا تَتَّخِذُوٓاْ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا ﴾ (النحل: ٩٤).

﴿ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴾ (محمد: ٩٤).

﴿ وَذَكِّرْ بِهِۦٓ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌۢ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ (الأنعام: ٧٠).

أو فى قول الشاعر:

ضربنا كمو حتى تفرق جمعكم وطارت أكف منكم وجماجم

وعادت على البيت الحرام عوابس وأنت على خوف عليه التمائم

وأنى لأغضى عن أمور كثيرة سترقى بها يوما إليك السلالم

وقد يكون التسخير للاسم الموصول أو المرخم فى النداء أو غير ذلك من وسائل خلق التأثير الأدبى.

ثانيا: بالنسبة للإعراب:

أشهر طرق العدول عن الإعراب ارداة المناسبة الصوتية كما فى إعراب الجوار وكما فى مراعاة القافية على حساب الضبط الإعراب وذلك كما فى قوله تعالى:

﴿ إِنَّ هَـٰذَانِ لَسَـٰحِرَٰنِ ﴾ بتشديد نون إنّ

وكقول الفرزدق:

وعض زمان يابن مروان لم يدع من المال الا محسنا أو مجلف

وقول امرئ القيس:

كأن يثيرا فى عرانين ويله كبير أناس فى بجاد مزمل

ثالثا: بالنسبة للمطابقة:

هناك ثلاث طرق للعدول الأدبى عن المطابقة:

١ـ الالتفات كما فى قوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا ٱلْمُسْتَـٰخِرِينَ ﴿٢٤﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴾ (الحجر: ٢٤ـ ٢٥) لاحظ اختلاف ضمير الخطاب بين الجمع فى "منكم" والأفراد فى "ربك" فهذا نوع من الالتفات.

٢ ـ اختلاف الاعتبار كما فى قولك أحيانا: "العرب تقول كذا" وأحيانا أخرى" العرب يقولون كذا" باعتبارهم فى الأول أمه أو جماعة وفى الثانى قوما أو جمعا.

٣ ـ التغليب كما فى قوله تعالى: ﴿ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا ﴾ (الأسراء: ٢٣) فى الوالدين تغليب معجمى لأن الأب مولود له وليس والدا لأنه لا يلد فالتغليب هنا لمعنى التأنيث أما فى أحدهما أو كلاهما فالتغليب نحوى وهو للتذكير.

رابعا: بالنسبة للربطالله

يعدل عن الربط بتكرار اللفظ أو بضميره أو بالإشارة إليه إلى الربط بالوصف نحو ﴿ قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾ (التوبة: ١٤)أى "ويشف صدوركم" ويعدل عنه كذلك بعدم المرجع للضمير كما فى قولهم" زعموا أن كذا" وقوله تعالى :﴿ إِنَّآ أَنشَأْنَـٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَـٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴾ (الواقعة: ٣٥ ـ ٣٧) مع أنه لم يسبق ذكرهن ومنه أيضا تنويع الضمائر دون ذكر المرجع نحو : ﴿ إِنَّهُۥ ﴾ (أى القرآن) ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢٠﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢١﴾ وَمَا صَاحِبُكُم ﴾ (أى محمد) ﴿ بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ ﴾ (أى محمد رأى جبريل) ﴿ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ ﴾ (محمد) ﴿ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾ وَمَا هُوَ ﴾ (القرآن) ﴿ بِقَوْلِ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٥﴾ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَـٰلَمِينَ ﴾ (التكوير ١٩ ـ ٢٧). وقد يعود الضمير

إلى أبعد مذكور كما فى﴿ لَّقَدْ كَانَ فِى يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَـٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا ﴾ (يوسف ٧ ـ ٨) فالضمير للاخوة ولكن السائلين أقرب إليه منهم.

خامسا: بالنسبة إلى الرتبة:

العدول عن الرتبة المحفوظة ترخص وليس استعمالا عدوليا أما العدول عن غير المحفوظة فهو موضوع هام من موضوعات البلاغة يسمى "التقديم والتأخير" وهو موضوع هام يسمونه فى علم اللغة الحديث foregrounding ويكون إما لأسباب فنية لاظهار معنى ما بواسطة التقديم وقد يكون لأسباب نفسية أو لتعود الأديب على التقديم حتى حين لا يؤدى التقدم غرضا معينا.

سادسا: بالنسبة إلى التضام

قلنا أن من الأصول التى جردها علماء العربية:

أ ـ الذكر ويكون العدول عنه بالحذف.

ب ـ الوصل ويكون العدول عنه بالفصل أو الاعتراض.

ج ـ أن يوضح لكل لفظ معنى أصلى والعدول عن ذلك يكون بما سبق ايراده تحت البنية.

د ـ عدم الزيادة ويعدل عنه بالزيادة.

هـ ـ الاختصاص نحويا أو معجميا والعدول عن الاختصاص النحوى يكون بتجاهل الاختصاص وعن الاختصاص المعجمى يكون بالمجاز وقد سبق الكلام فى المجاز ويمكن أن يخضع هنا لزيادة بيان.

فالحذف والفصل والاعتراض والنقل والزيادة وتجاهل الاختصاص والمجاز كلها ظواهر يتمثل فيها العدول عن الأصل فى التضام أثناء الاستعمال الأدبى، والحذف قد يكون نحويا وقد يكون بيانيا وشرطهما أمن اللبس بواسطة وجود دليل المحذوف سواء أكان الدليل مقاليا أم حاليا وقد يحذف المبتدأ أو الخبر أو الموصوف أو الصفة أو المضاف إليه أو شطر الجملة أو كلام طويل يقتضيه المقام كما فى قصص الأنبياء فى القرآن ولست أجد المسافة لإيراد الشواهد على كل ذلك فى بحث مختصر

كهذا البحث وأما الفصل فنوعان فصل نحوى بين المتلازمين وفصل بلاغى بمعنى حذف الحروف الرابطة بين جملة وجملة والفرق بين الفصل النحوى والاعتراض أن الفصل يكون بما دون الجملة أو بجملة غير أجنبية ويكون الاعتراض بجملة أجنبية كاملة تسمى الجملة المعترضة أما الزيادة فى نظر النحويين فهى حشو فى الكلام لأنها ليست جزءا من نمط التركيب فى الجملة ولكنها عند البلاغيين وسيلة أسلوبية لافادة التأكيد لأن زيادة المبنى عندهم تدل على زيادة المعنى ومن هنا دخلت الزيادة حظيرة الاستعمال العدولى. وأما تجاهل الاختصاص فالمعروف أن بعض الحروف تختص بالدخول على الإسماء وبعضها يختص بالدخول على الأفعال. وأن بعض الظروف يضاف إلى الجملة الفعلية ولكننا قد نجد تجاهلا لهذا الأسباب أسلوبية فمن ذلك قوله تعالى:﴿ وَإِنَّ كُلاًّ لَّمَّا لَيُوَفِّيَنَّهُمْ رَبُّكَ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴾ (هود: ١١١) فدخل الحرف (لما) على الحرف (اللام) ومن ذلك دخول إذا الظرفية على الاسم المرفوع نحو " إذا السماء انشقت" وكذلك دخول ان الشرطية عليه نحو "وأن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله". وأما تجاهل الاختصاص المعجمى فيتضح إذا عرفنا أن لكل كلمة فى المعجم اختصاصا بقبيل من الكلمات دون قبيل فالفعل "نما" مثلا لا يكون فاعله فى الأصل إلا حيوانا أو نباتا فإذا قلنا "نما شوقى إليك" فذلك تجاهل اختصاص الكلمة معجميا وهو ما يسمى المجاز أى أن المجاز يقوم على المفارقة المعجمية بين اللفظ الذى يحمل المجاز وبين قرينة المجاز لأن لفظ "شوقى" فى هذه الجملة هو القرينة بسبب أنه يدل على عدم إرادة المعنى الأصلى.

هذا ما قصدته بالاستعمال العدولى وهو فهم حديث لمادة قديمة وبهذا يتضح لنا أن معنى الحداثة إذا اتصل بالنتائج فإنه يرتبط أعظم الارتباط بفكرة الابتكار.

هذه نظرة سريعة ألقيتها على قضايا الحداثة بالنسبة للغة العربية انتفعت فيها بجهودى فى بحوث أو كتب لى منشورة ولكن موضوع الاستعمال العدولى بالذات أخذته من كتابى : "التمهيد فى اكتساب اللغة العربية لغير الناطقين بها" وهو تحت الطبع الآن.

إبداع المعنى فى اللغة العربية
من منظور تعدد الحقول المعرفية

١ـ المعنى العرفى

لعل أهم الجوانب فى دراسة الاتصال اللغوى هو جانب المعنى. ذلك بأن الاتصال يتم بواسطة الإرسال والتلقى، ويسعى المتلقى دائمًا إلى إدراك مقاصد المرسل، وقد تقوم العقبات فى سبيل إدراك هذه المقاصد فيكون ذلك سببا فى فشل مشروع الاتصال. بل إن المرسل نفسه قد يكون سببا فى إفشال هذا المشروع إما عن عمد وإما عن غفلة. فأما العمد فإن اللغة قد تكون وسيلة إلى إخفاء المقاصد الحقيقية لدى المرسل وتضليل المتلقى على نحو ما يحدث أثناء المفاوضات السياسية، أو بواسطة صور أسلوبية خاصة كالإلغاز والتعمية مثلا. وأما الغفلة فقد يأتى خفاء المعنى بسبب ما ينشأ عن بعض التراكيب من اللبس الذى تتعدد به احتمالات المعنى ولا تقوم قرينة على إرادة واحد منها دون غيره كما فى قولنا "زيارة الأصدقاء تسعد النفس" فلا يدرى السامع من الذى زار ومن الذى سعد بالزيارة. ومثل ذلك ما فى قولنا "ترددت على متاحف الأثار المصرية "إذ يصلح الوصف بالمصرية للمتاحف كما يصلح للآثار دون قرينه تفيد قصد أى منهما.

واللغة نظام يربط بوسائله المعينة بين ما يقال وبين طريقة فهمه سواء كان القول سعيا إلى إيضاح القصد أم إلى إخفائه، وكأنى بإظهار المقصود يبدو ألصق بالتزام الطابع العرفى للأداء اللغوى كما يكون إخفاء القصد ألصق بالطابع الأسلوبى الفردى. ويرتبط ذلك من جهة أخرى بدرجة الإعلامية فى النص. فإعلامية النص قد تكون فى الدرجة الدنيا كما فى اتفاق اللفظ فى ركنى الجملة لقولنا: الحق حق والباطل باطل وقول أبى الحسن الأشعرى "من عرفنى فقد عرفنى ومن لم يعرفنى

فأنا أبو الحسن الخ" ثم أعلن الثورة على المعتزلة فهذه الدرجة تحتاج إلى إعلاء يرقى بها إلى الدرجة الوسطى وهى الدرجة الإعلامية السائدة إذ يؤولها المتلقى إلى معنى مقبول أما الدرجة العليا فهى درجة الإلغاز والتعمية وهذه تحتاج إلى خفض يهبط بها إلى مستوى الدرجة التى يسهل فهمها ويكون ذلك بفك شفرتها من قبل المتلقى.

وإذا كانت اللغة نظاما فإن من شأن كل نظام أن يكون مؤلفا من وحدات متكافلة متضافرة فى أداء وظائفها. فشأن كل وحدة فى علاقتها مع الأخرى هو كما قال الرسول صلى الله عليه وسلم "مثل المؤمن للمؤمن كاليدين تغسل أحداهما الآخرى". ولهذا التكافل والثبات فى تكوين النظام كان الاطراد من ثوابت النظام، بل فى الدرجة العليا بين الثوابت يدعمها ثابتان أخران هما أمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى فتبدو العلاقة بين الثوابت الثلاثة كما يلى:

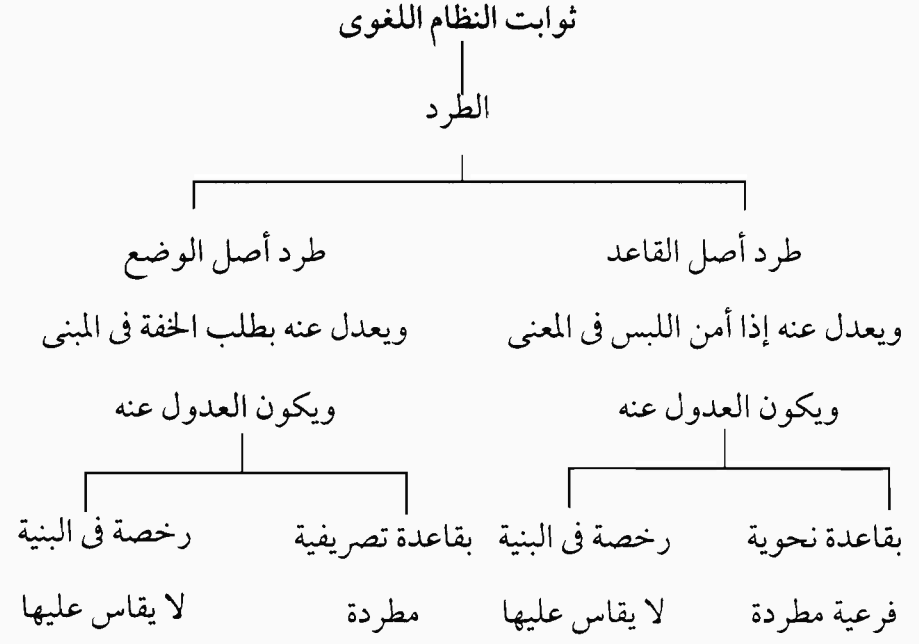

وإذا كان همنا فى هذه العجالة مرتبطا بالمعنى فإننا سنوجه كل جهدنا إلى إدراك كنه هذا المعنى اللغوى وذلك بواسطة ذكر أقسامه وطبيعة كل قسم منها وطرق الإبداع فى حدود كل قسم من هذه الأقسام. وفيما يلى بيان لهذه الأقسام:

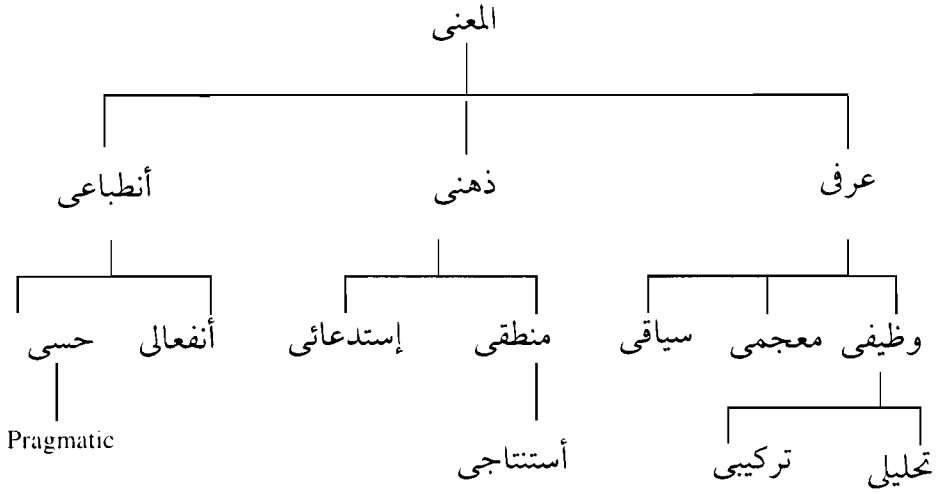

دعنا أولاً نلق نظرة على المعنى الوظيفى بقسميه التحليلى والتركيبى. لقد ذكرنا منذ قليل أن اللغة نظام مكون من وحدات نظامية. هذه الوحدات نظم فرعية هى نظام الأصوات ونظام الصرف ونظام النحو. فأما النظام الصوتى فيقوم على اتفاق الأصوات أو أختلافها فى المخارج والصفات وليس للصوت اللغوى فى ذاته معنى ولكنه يتخذ وسيلة للوصول إلى معنى الكلمة فالحركة الإعرابية صوت ونون الرفع صوت والأمر كذلك فى تاء الفاعل وألف الأثنين وواو الجماعة والوصول إلى تعدية الثلاثى اللازم بالهمزة أو بالتضعيف وظواهر أخرى متعددة تتخذ فيها الأصوات وسيلة للتعبير عن وظيفة من وظائف الكلمات. عندئذ يكون الصوت قرينة من قرائن المعنى وأوضح ما نسبت إليه صفة القرينه هوكون الحركة قرينه إعرابية على الفاعلية أو المعقولية إلخ. معنى هذا أن النظام الصوتى لا يقوم لذاته وإنما يقوم على إمداد النظامين الصرفى والنحوى بقرائن المعنى الوظيفى فيهما كما يتخذ وسيلة للتعبير عن المعنى الانطباعى الذى لم يحن موعد الكلام فى شأنه.

أما النظام الصرفى فإن نصيبه من الدلالة على المعنى يتعلق بمواقع المفردات والمقصود أنه يتعلق بالمواقع لا بالمفردات نفسها لأن المفردات تقع فى نطاق المعجم. ومعنى البنيه معنى وظيفى عام أى أنه لا يحدد مدلولا بعينه فأذا قلنا أن صيغة استفعل تدل على الطلب نحو استغفر أى طلب المغفرة فإن الطلب أعم من أن

يخصص بالمغفرة دون غيرها ومن هنا تكون "استفعل" قالبا يمكن أن يصاغ على مثاله عدد لا حد له من الكلمات. كذلك إذا قلنا إن المصدر يدل على الحدث فإن هذا النوع من الكلمات الدالة على الحدث قد يستعصى على الحصر. ومن قبيل ذلك أن كل أسم فاعل يدل على التجدد والحدوث وكل صفة مشبهه تدل على الدوام والثبوات والحال ينبغى أن تكون مشتقة والتمييز ينبغى أن يكون جامدا ولا يصاغ التفضيل والتعجب كلاهما إلا من أصل فعله ثلاثى متصرف دال على التفضيل وهو تام مثبت وليس الوصف منه على وزن أفعل ولا يستوى فيه المذكر والمؤنث.

ولقد جذب انتباه النحاة العرب ما يطرأ من تغير على بنية المفردات فى بئتى الجدول والسياق وما يرتبط بهذا التغير من اختلاف فى الوظيفة التى تؤديها الكلمة المفردة فلاحظوا ما يلى:

١ ـ ارتباط وظيفة الكلمة فى السياق بما يكون من حركات الإعراب على آخرها.

٢ ـ وارتباطها بما تفيده من دلالة على مسمى أو حدث أو زمن أو مجرد علاقة بين عنصرين فى السياق كدلالة حرف العطف على العلاقة بين المتعاطفين.

٣ ـ أو كون الكلمة على قالب صورى بعينه يمنحها معنى عاما إذ تدل على فاعل أو مفعول أو مبالغة أو تفضيل إلخ.

٤ـ ولاحظ النحاة أن بعض الألفاظ لا يستعمل إلا مقترنا بلفظ آخر وأن ألفاظا تختص بالدخول على قسم بعينه من أقسام الكلمة وأن اللفظ المفرد فى السياق من شأنه نحوياً أن يصاحب ما هو له معجميا.

٥ـ ولا حظوا أن لأقسام الكلمة فى السياق رتبا بعضها لا يتخلف ولكن يجوز فى البعض الآخر أن يتقدم ما يستحق التأخير والعكس.

٦ـ ووجدوا أن أواصر العلاقة الرابطة بين كلمة وأخرى فى السياق قد تتحقق بإعادة اللفظ أو المعنى أو بعود الضمير على مذكور سابق ونحو ذلك أو بمطابقة أحد اللفظين للآخر فى التكلم أو فرعيه والإفراد أو فرعية وفى التذكير والتأنيث وفى التعريف والتنكير وفى الإعراب.

٧ـ ووجدوا أن الألفاظ قد تذكر أو تحذف أو تضمر أو يضمر لها أو يتصيد معناها من السياق. وهكذا فهم النحاة مما لاحظوه أن المعنى النحوى بحاجة إلى قرائن تدل عليه واستخلصوا من فهمهم هذا قرائن مختلفة تدل على المعنى ينتمى كل منها إلى فرع من فروع نظام اللغة.

أ ـ فالأعراب ينتمى فى جملته إلى النظام الصوتى ولكنه قد تكون له علامة هى عنصر من عناصر الأصوات وقد لا تكون فيبدو الأمر على النحو التالى:

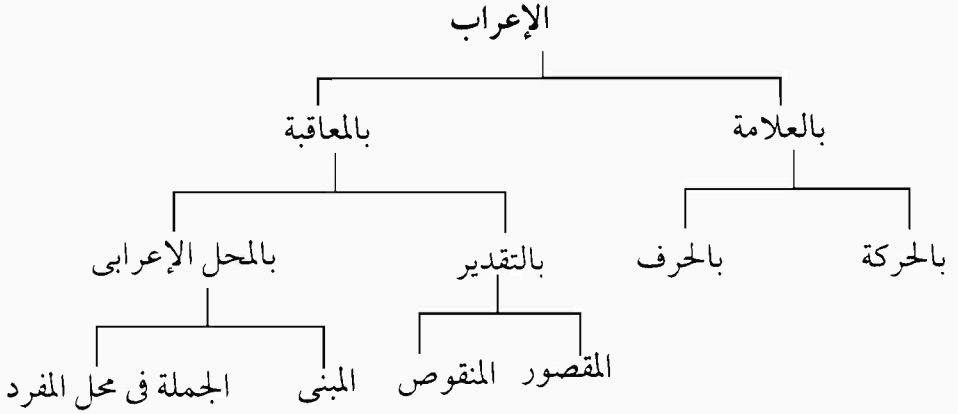

فالإعراب بالحركة للصحيح الآخر والإعراب بالحرف للمثنى والجمع والأسماء الخمسة أما المعاقبة فهى افتراض حلول ما يقع تحتها من أقسام محل الصحيح الآخر والنظر فى ما يستحقه هذا الصحيح من حركة فيكون تقديرها على المقصور أو المنقوص أما المبنى والجملة التى فى محل المفرد فيكون إعرابهما منسوبا إلى محل المفرد الصحيح الآخر أى بموقعه فى الكلام.

ب ـ والبنية قرينة تنتمى إلى نظام الصرف لتكون فى خدمة النحو بما يكون لها من معنى صرفى كدلالتها على الفاعل أو المفعول أو المبالغة وكونها مشتقة أو جامدة أو دالة على هيئة أو مرة إلخ.

ج ـ التضام ويقع فى ثلاثة أقسام:

الأول: الافتقار ومعناه ألا يكون اللفظ صالحا للورود بمفرده وإنما يحتاج إلى ضميمة تكمل معناه كافتقار حرف الجر إلى مجرور وحرف العطف إلى متعاطفين والموصول إلى صلة... إلخ، وقد يكون الافتقار للباب لا للفظ كافتقار المضاف

إلى مضاف إليه والمبهم إلى مفسر وهذا الذى يسميه النحاة: افتقارا غير متأصل... إلخ.

الثانى: الاختصاص ومعناه أن يكون العنصر اللغوى مرتبطا فى وروده بعنصر آخر دون غيره من العناصر كاختصاص حروف الجر بالأسماء وحروف الجزم بالأفعال وإختصاص "لم" بالمضارع.

الثالث: المناسبة المعجمية بأن يرتبط اللفظ بما يناسبه من الألفاظ وذلك ما يعبر عنه البلاغيون بقولهم "إسناد الفعل إلى ما هو "فمن شأن الفعل" فهم" مثلا أن يسند إلى عاقل يصح منه الفهم.

د ـ الرتبة: وهى نوعان"

الأول: الرتبة المحفوظة كرتبة الحرف ومدخوله والموصول وصلته والمضاف والمضاف إليه والمبهم والمفسر والفعل والفاعل إلخ.

الثانى: الرتبة غير المحفوظة كرتبة المبتدأ والخبر ورتبة الفعل والمفعول به أو فيه أو له إلخ وهذه الرتبة هى التى أعانت البلاغيين على التنظير للتقديم والتأخير.

هـ ـ الربط: وهو أيضا نوعان:

الأول: الربط بالإحالة وذلك بأن يشير عنصر لاحق إلى عنصر آخر سابق فى النص إذ يعاد ذكر السابق بلفظه أوبمعناه أو يضمر له فيعود الضمير إليه أو يشار إلى السابق.... إلخ

كما يؤدى حرف الجر وظيفة الربط بالمرجع وحرف العطف إلى ربط المعطوف بالمعطوف عليه وأدوات الجمل بما لها من صدارة تربط بين ما يقع فى حيزها من ألفاظ الجملة وهكذا.

الثانى: الربط بالمطابقة بين الألفاظ فى الإفراد وفرعيه والتكلم وفرعيه والتذكير والتأنيث والتعريف والتنكير وفى قرينه الإعراب.

و ـ نغمة الكلام: وذلك أن تتصور تنوع معنى عبارة "ما هذا" بين نغمة الاستفهام وبين الإنكار كما أن عبارة "السلام عليكم" قد تخرج بنغمتها أو مقامها عن أن

تكون تحية إسلامية إلى أن تكون للمغاضبة كما فى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَمِعُواْ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُواْ عَنْهُ وَقَالُواْ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (سورة القصص : ٥٥)

ز ـ السياق: كدلالة لفظ "ما" فى قوله تعالى ﴿ لِيَأْكُلُواْ مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ (سورة يس: ٣٥) إذ ينسب بعض المفسرين معناها إلى الموصولية ولكن البعض الآخر رأى أنها نافيه لما يأتى بعدها من عبارة (أفلا يشكرون) لأن الشكر على أكل ما لم تعمله يد الآكل يعد أمرا مستحقا.

فكل القرائن المذكورة فيما عدا الإعراب والبنية تعد نحوية لا صوتية ولا صرفية لأنها تدل على علاقات تقوم بين اللفظ واللفظ. والعلاقات من صلب النحو.

وهناك قرينة مهمة جدا لم ير النحاة ضروريتها لمعنى الجملة ولكنها لا يمكن الاستغناء عنها بالنظر إلى معنى النص وتلك هى قرينة الموقف المتصل بإجراء الاتصال وهى تذكرنا بم درج البلاغيون بتسمية (المقام) غير أن المقام كما يراه البلاغيون من قبيل الحالات الثابتة static ولكن فكرة الموقف عملية Pragmatic ومتحولة dynamic. ومن قبيل الانتفاع بالموقف فى فهم مجرى النص ما نراه من دراسة أسباب النزول لفهم النص القرآنى. وحين نقرأ قوله تعالى ﴿ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ ﴾ (يوسف : ٧٦) نجد أنه لولا تفاصيل الموقف لكان تصرف يوسف بهذه الطريقة إضرارا لا حدود له بشقيقه الأصغر وانحرافا فى سلوك نبى من أنبياء الله أما الموقف كما يشرحه النص فيدلنا على ما يلى:

١ ـ شوق يوسف إلى أخيه ومطالبة إخوته لأبيه بإحضاره.

٢ ـ رغبته فى استبقاء أخيه عنده عند الحضور.

٣ ـ تدبير مكيدة السرقة المزعومة.

٤ ـ إلصاق تهمة السرقة بأخيه الأصغر.

٥ ـ بعد إثبات التهمة لم يرد أن يطبق العقوبة المصرية على أخيه لأنه (ما كان ليأخذه أخاه فى دين الملك) فسأل إخوته عن العقوبة فى عرفهم فقالوا: (من وجد فى رجله فهو جزاؤه أن يخضع للرق سنة كاملة.

٦ ـ عندئذ قرر يوسف ن يلصق تهمة السرقة بأخيه ليتخذ ذلك خطوة تمهيدية لدوام الاتصال بأسرته واستقدامها إلى مصر. هذا هو فهم النص فى سياق الموقف.

دعنا ننظر الأن فى تطبيق القرائن النحوية التى توضح معنى الجملة قبل أن ننظر فى طرق الإبداع فى النص. نفرض أن عندنا جملة مثل: (ذهب الرجل إلى حال سبيله) وكان علينا أن نوضح (قرائن النحو) فى هذه الجملة: أقول قرائن النحو التى تختلف عن قرائن النص ولكنها تدخل فى مفهومه العام:

١ ـ أول ما نلاحظ فى النص قرينة البنية التى تبدو فى المظاهر التالية:

أ ـ ذهب فعل ماض.

ب ـ الرجل اسم معرفة محلى بأل المفيدة للجنس.

ج ـ "إلى" حرف يستعمل فى إفادة بلوغ الغاية.

د ـ حال اسم.

هـ ـ الهاء ضمير غيبة.

٢ ـ التضام ويبدو فى المظاهر التالية:

أ ـ الفعل يحتاج إلى فاعل وقد تحقق الفاعل بلفظ الرجل.

ب ـ "إلى" حرف يفتقر إلى اسم يلحقه والاسم هو (حال) .

ج ـ كلمة (حال) لفظ مبهم يحتاج إلى ما يخصصه من وصف أو تمييز الخ وقد أضيف إلى لفظ (سبيل).

هـ ـ أضيف سبيل إلى ضمير الرجل فأكتسب اللفظان (حال وسبيل) التعريف بالإضافة .

٣ ـ الرتبة وتبدو فيما يلى:

أ ـ تقدم الفعل على الفاعل.

ب ـ تقدم حرف الجر على المجرور.

ج ـ تقدم المرجع (الرجل) على الضمير.

د ـ تقدم المضاف على المضاف إليه.

٤ ـ الربط ويبدو فيما يلى:

أ ـ تعلق الجار والمجرور (الرجل) بالفعل (ذهب).

ب ـ عود الضمير على الرجل.

٥ ـ الإسناد : وهو قرينة معنوية تفيد العلاقة بين الفعل والفاعل أى أن الفعل أسند إلى الفاعل.

٦ ـ الإعراب: وهو يبدو فى رفع الرجل وجر حال وسبيل ومحل الهاء العائد إلى الرجل وبهذه العلامات (أو القرائن) مجتمعة فهمنا المعنى النحوى للجملة ولكننا لم نفهم المعنى النصى من حيث لا نعلم من هو الرجل ولا الظروف التى دعته إلى الذهاب إلى حال سبيله ولا نعمل من المرسل ولا من المتلقى وإن علمنا أن هذه الجملة مثال نحوى وليست شاهدا نصيا، وعندما ذكرنا ثوابت النظام النحوى قلنا إنها ثلاثة هى الطرد أو الاطراد وأمن اللبس فى المعنى وطلب الخفة فى المبنى، ونضيف فى هذا الموضع أن النحاة كانوا يغارون على إطراد قواعدهم ويتضح ذلك مما كان بين عبد الله بن أبى أسحق الحضرمى النحوى وبين الفرزدق الشاعر ومن رد الفرزدق على الحضرمى بقوله (علينا أن نقول وعليكم أن تتأولوا). والواقع أن أمن اللبس وطلب الخفة كانا قيدين على الطرد فإذا كان اللبس مآمونا أو الخفة مطلوبة فإن القواعد لم تحافظ على أطرادها لا نحويا ولا أسلوبيا. فأما نحويا فإننا نستطيع أن نرى عددا من حالات التقعيد فى النحو يتخلى عن الاطراد بسبب أمن اللبس. وحسبنا أن نورد عددا من أبيات ألفية أبن مالك للدلالة على هذه الظاهرة:

١ ـ ولا يكون اسم زمان خبرا ... عن جثه وإن يفد فأخبرا

٢ ـ ولا يجوز الابتدا بالفكرة ... ما لم تفد كعند زيد نمرة

٣ ـ والأصل فى الأخبار أن تؤخرا ... وجوز والتقدم إذ لا ضررا

٤ ـ وشاع فى ذا الباب إسقاط الخبر ... إذا المراد مع سقوط ظهر

٥ ـ والحذف فى نعم الفتاة أستحسنوا لأن قصد الجنس فيه بين

٦ ـ وما بالآ أو باء نما انحصر آخر وقد يسبق إن قصد ظهر

٧ ـ فى باب ظن وأرى المنع اشتهر ولا أرى منعا إذا القصد ظهر

٨ ـ وحذف ما منه تعجب استبح إن كان بعد الحذف معناه يضح

٩ ـ وإن يقدم مشعر به كفى كالعلم نعم المقتنى والمقتفى

١٠ ـ وربما أسقطت الهمزة إن كان خفا بحذفها أمن

فأمن اللبس فى هذه المواضع وغيرها كان سببا فى كسر القاعدة الأصلية بقاعدة فرعية مما يدل على أن القاعدة معيار مقيد default بأمن اللبس.

ليس ذلك فحسب بل إن هناك أمرًا آخر يبيحه أمن اللبس وهو الترخص فى قرائن النحو بأنواعها المختلفة لأن إحدى القرائن فى موضع ما قد تفيض عن حاجة المعنى إليها لا تضاحه بغيرها من القرائن فعندئذ يترخص المرسل فى القرينة ولا يجد المتلقى صعوبة فى فهم المعنى. وقد يكون من المستحسن هنا أن نضرب بعض الأمثلة للترخيص النحوى وإن كان موضع ذلك سيأتى عند الكلام فى طرق الإبداع. قال امرؤ القيس:

كأن ثبيرا فى عرانين وبله كبيرُ أناس فى بجاد مزمل

فجر لفظ "مزمل" وحقه الرفع لأنه نعت للفظ "كبير". والله تعالى يقول لإبراهيم "﴿ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾ " فسأله إبراهيم ﴿ وَمِن ذُرِّيَّتِى ﴾ بحذف الهمزة (البقرة ١٢٤). ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُوا۟ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ ﴾ (فاطر : ٤٥). دون أن يذكر مرجع الضمير فى ظهرها لأن المرجع هو الأرض فالدابة لا تدب إلا عليها.

أما الثابت الثالث وهو ما عرفه النحاه بأسم "طلب الخفة" فإنه يكشف عن الذوق اللغوى العربى فيما يتصل بشروط توالى الأصوات فى النطق. فلقد وجد النحاة من خلال الاستقراء أن الذوق العربى يكره توالى المثلين والمتقاربين مخرجا أو صفة كما يكره توالى الأضداد ولكنه يرحب بتوالى الصوتين المختلفين فى المخرج

والصفة. ومن قبيل ما ساقه اللغويون فى وصف هذا الذوق ما ورد فى كتاب المزهر للسيوطى (ص ١١٩) من وصفه لرتب الفصاحة إذ جعل المخارج أنواعا ثلاثة هى الأقصى والأوسط والأدنى ثم رصد احتمالات تواليها فى النطق حتى جعل أفصح الألفاظ ما توالى فيه الأعلى فالأوسط فالأدنى نحو "عدم" أما عند النحاة فالأمر أكثر تفصيلاً لأنهم بتجريدهم لأصل وضع الكلمة استطاعوا أن يرصدوا الطرق المؤدية إلى الخروج من دائرة التقل وأن يكشفوا عن وسائل اللغة العربية للعدول عن هذا الأصل والوصول بطلب الخفة إلى غايته المنشودة بواسطة قواعد تصريفية على أساس من الإدغام والإعلال والأبدال والنقل والقلب والحذف إلخ فأدغموا المثلين والمتقاربين لكراهية تواليهما ومنعوا توالى الضدين (كالصاء والجيم) وأعلّوا الواو والياء فى مواقع معينة وأبدلوا حرفا من حرف (كإبدال الطاء من تاء الاقتعال بعد الحرف المفخم) ورصدوا انتقال أحد أصول اللفظ من موقعه إلى موقع آخر كما فى لفظ "جاه" وقلب حرف إلى حرف آخر كما فى كساء وبناء وحذف حرف ما لتقل النطق به كما فى حذف الواو "لتُبْلَوُنَّ" وأخضعوا كل ذلك لقواعد تصريفية سمتها السعى إلى طلب الخفة.

ينبغى عند هذا الحد أن ننتقل من تناول المعنى التحليلى (وهو أحد قسمى المعنى الوظيفى) وأن نتناول المعنى التركيبى وهو معنى الجملة. ينقسم معنى الجملة العربية إلى ثلاثة أقسام كما يلى:

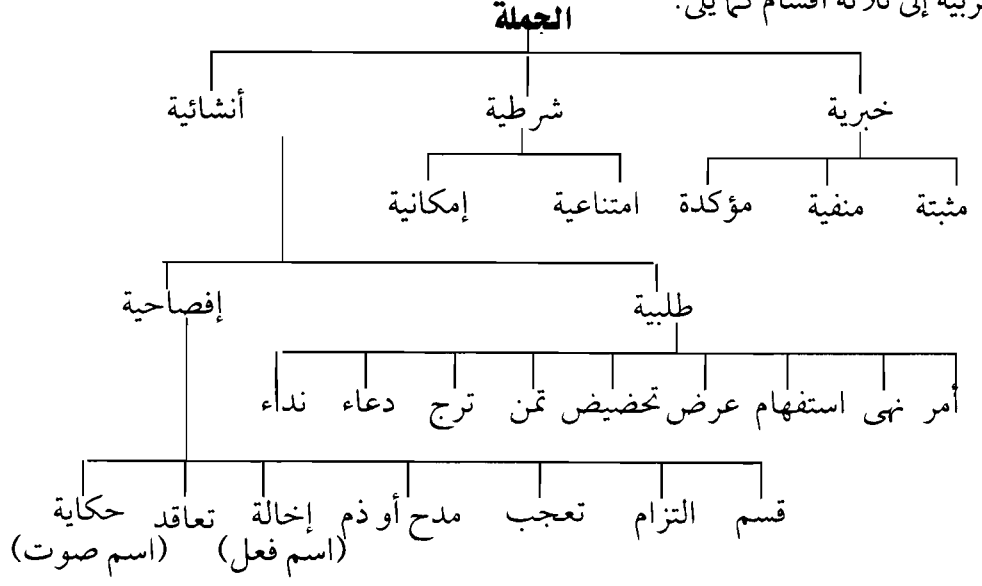

أما لفظيا فهى إما اسمية وإما فعلية وإما مسبوكة من عناصر أخرى.

بقى أن نتناول فى حدود المعنى الوظيفى ظاهرتين يتوقف عليهما الاقتصاد اللغوى هما تعدد المعنى الوظيفى ونقل اللفظ من قسم إلى آخر من أقسام الكلم. وأول ما نلاحظه فى ظاهرة النقل أن (إذ) تنقل من الظرفية التى لها بحكم الأصل إلى المصدرية كما فى قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا ﴾ (سورة آل عمران: ٨) أى بعد أن هديتنا وإلى التعليل كما فى قوله تعالى ﴿ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴾ (سورة النساء: ٧٢) أى لأنى لم أكن معهم. ومثل ذلك نجده فى شأن (ما) الموصولة بحسب الأصل إذ تنقل إلى أستعمال الحروف والأدوات فتكون أستفهامية أو شرطية أو تعجبية أو مصدرية أو زائدة فيتعدد معناها فى نطاق الحرفية وبذا تتحقق بها الظاهرتان معا وهما النقل من المصدرية إلى الحرفية وتعدد المعنى فى نطاق الحرفية.

هذا هو الشأن فى المفردات أما نقل نمط الجملة من معنى إلى معنى آخر فهو أيضا من وسائل الأقتصاد فى اللغة. فلو نظرنا إلى تركيب جملة مكونة من فعل وفاعل أو مبتدأ وخبر لنسبنا التركيب إلى معنى الجملة الخبرية حتى إذا دققنا فى دلالات السياق فربما وجدنا الجملة على معنى الطلب كالأمر فى قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة : ٢٢٨)أو الدعاء فى قوله ﴿ أَلَا لَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ (هود: ١٨) وقولنا "رعاك الله" أو "بارك الله فيك" كما يستعمل هذا النمط فى دلالة على الشرط كما فى قوله تعالى:﴿ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُم بِٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ﴾ (البقرة : ٢٧٤) وقوله: وَٱلَّذَانِ يَأْتِيَٰنِهَا مِنكُمْ فَـَٔاذُوهُمَا ﴾ (النساء : ١٦) . وكذلك يستعمل هذا النمط فى معنى العرض نحو ﴿ قَالَ يَٰقَوْمِ هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِى هُنَّ أَطْهَرُ لَكُمْ ﴾ (هود: ٧٨) وفى معنى الالتزام والتعاقد كقول موسى لشعيب: ﴿ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ﴾ (القصص : ٢٨) ولإفادة التعجب نحو ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴾ (ص: ٥) أما النمط الخبرى المنفى فينتقل إلى الدعاء نحو ﴿ فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴾ (البلد: ١١) وإلى النهى نحو: ﴿ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ﴾ (البقرة : ١٩٧). وقد يخرج النمط

الشرطى إلى التعجب نحو:﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ ﴾ (الرعد: ٥) وإلى التمنى نحو: ﴿ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ ﴾ (البقرة: ١٦٧) وإلى التسوية نحو: ﴿ إِنَّا هَدَيْنَاهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ (الإنسان: ٣) أى سواء كان شاكرا أم كان كفورا وينقل النداء إلى معنى التعجب نحو: ﴿ يَٰبُشْرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٌ ﴾ (يوسف: ١٩) وإلى النُّدبة كما فى قول يعقوب: ﴿ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ ﴾ (يوسف : ٨٤) وإلى الاختصاص نحو :﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا ٱلضَّآلُّونَ ٱلْمُكَذِّبُونَ ۝ لَآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ ﴾ (الواقعة :٥١- ٥٢) وإلى التمنى نحو:﴿ يَٰلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَآ أُوتِىَ قَٰرُونُ ﴾ (القصص: ٧٩) وينقل الأمر إلى معنى الشرط نحو: ﴿ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر: ٦٠) وإلى النهى نحو:﴿ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ ﴾(المائدة: ٩٠) أى لا تقربوه وإلى العرض نحو: ﴿ فَخُذْ أَحَدَنَا ﴾ (يوسف ٧٨) وإلى التحدى نحو:﴿ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ (الشعراء: ١٨٧) وينقل النهى إلى الدعاء نحو:﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا ﴾ (آل عمران: ٨) وإلى الأمر نحو:﴿ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٠٢)أى تمسكوا بالإسلام حتى الموت كما ينقل النهى أيضا إلى الشرط نحو: ﴿ وَلَا تَرْكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ ﴾ (هود: ١١٣). أما الاستفهام فينقل إلى الإنكار نحو: ﴿ هَلْ ءَامَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمْ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف: ٦٤) وإلى التقرير نحو: ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَـَٔاوَىٰ ﴾ (الضحى: ٦) وإلى النهى نحو : ﴿ أَتَأْتُونَ ٱلذُّكْرَانَ مِنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الشعراء : ١٦٥) وإلى الأمر نحو:﴿ قَالُوٓاْ أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ (الحجر : ٧٠) بهذا يتبين أن النقل وتعدد المعنى ظاهرتان من ظواهر الاقتصاد اللغوى تعينان على الوصول بالقليل من وسائل التعبير إلى الكثير من المعانى.

والمعروف أن ظاهرة النقل من وسائل الإبداع فى المعنى وبخاصة إذا انتقلنا من الكلام فى المعنى الوظيفى إلى تناول المعنى العجمى فالمعروف أيضا أن المعنى المعجمى يصيبه النقل كما يتصف بالتعدد دعنا أولا ننظر إلى نقل المعنى المعجمى بوصفة وسيلة من وسائل الإبداع فى المعنى. فحين عرف البلاغيون المجاز قالوا إنه: (نقل اللفظ من معناه الأصلى إلى معنى غيره لعلاقة بينهما مع قرينه مانعة من إرادة

المعنى الأصلى) فإذا نظرنا إلى نص هذا التعريف وجدناه يبدأ بكلمة (نقل) فدلنا ذلك على أن النقل وسيلة من وسائل الإبداع فى المعنى اللغوى. وإذا نظرنا أيّة كلمة فى المعجم لم نجد لها معنى واحدا وإنما تتعدد معانى الكلمة بحسب ما ترد فيه من سياق ومن هنا كان الأستشهاد وذكر المثال والصورة الفوتوغرافية وغير ذلك من الوسائل ضروريا لبيان المعنى المعجمى المتعدد للكلمة الواحدة.

أنظر مثلا إلى ما يلى:

لفظ (ضرب) يدل على المعانى الأتية:

١ ـ أوقع الضرب	نحو	ضرب الأب أبنه
٢ ـ ذكر	نحو	ضرب الله مثلا
٣ ـ حدد	نحو	ضرب لصديقه موعدا
٤ ـ أقام	نحو	ضرب لضيفه قبه (أى خيمة)
٥ ـ صاغ	نحو	ضرب العملة
٦ ـ فرض	نحو	ضرب على الناس ضريبة
٧ـ دق	نحو	ضرب الجرس
٨ ـ حسب	نحو	ضرب ٥×٦
٩ ـ ارتبك وتحير	نحو	ضرب أخماسا فى أسداس
١٠ ـ أصاب	نحو	ضربت عليهم الذلة أينما ثقفوا

فهذا التعدد فى المعنى المعجمى يذكرنا بما سبق من تعدد المعنى الوظيفى للظرف (إذ) وللحرف (ما) أى أن ظاهرة تعدد المعنى تشمل المعنى العرفى بقسمية الوظيفى والمعجمى ومثلها ظاهرة النقل فيهما من وسائل الإبداع فى المعنى اللغوى.

وللإبداع فى مجال المعنى العرفى وسائل آخرى غير النقل وتعدد المعنى. ومن هذه الوسائل ما تناوله علم المعانى من الظواهر كالوصل والفصل وكالتقديم والتأخير والحذف والإضمار وكالقصر والإيجاز والإطناب.

وما أشار إليه علم النص من معايير النصية التى يطلب الوفاء بها كالسبك المساوقة والقصد والقبول والتناص ورعاية الموقف والإعلامية ولنا أن نذكر بعض أمثلة من آيات القرآن الكريم لندل بها على بعض هذه الظواهر: إن فصل الجملة عن أختها فى الكلام يوحى بالرغبة فى الوصول إلى إنهاء موقف غير محبوب ومن شواهد ذلك ما نلاحظه من المغاضبة التى توحى بها الآية التالية:

١ ـ ﴿ وَإِذَا سَمِعُوا ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ (القصص : ٥٥) فظاهرة الفصل هنا حولت التحية إلى مغاضبة ورغبة فى إنهاء الاتصال.

٢ ـ ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ۝ قَالَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَغْوَيْنَآ أَغْوَيْنَٰهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَآ إِلَيْكَ مَا كَانُوٓا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ ﴾ (القصص : ٦٢ ـ ٦٣).

٣ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴾ (المائدة): ١١٦.

فالفصل فى الآيتين الثانية والثالثة يدل على فزع الكافرين من قوله تعالى ﴿ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴾ (القصص: ٧٤)وفزع عيسى بن مريم من سؤال الله إياه إن كان طلب من الناس أن يتخذوه وأمه الهين. وفى كل آية منهما سعى من المسئول إلى إنهاء موقف الاتصال إنهاء سريعا.

أما ظاهرة الإبداع بواسطة التقديم فمثالها قوله تعالى: ﴿ أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ ﴾(الصافات: ٨٦) فالمعروف أن الترتيب النحوى لهذا الآية يقتضى أن تكون الرتبة " أتريدون آلهة من دون الله إفكا" ولكن ترتيب المفاهيم فى الآية جاء بحسب ترتيب الاعتراض على كل منها فالإفك أولها والشر ثانيها وتأتى إرادة كل منهما أخيرًا لأن من شأن الناس أن يريدوا شيئا ما.

وأما ظاهرة السبك فإن قوامها المحافظة على شروط توالى الكلمات فى النص بما تشتمل عليه هذه الشروط من افتقار وأختصاص ومناسبة ورتبة وربط إلخ. وحسبنا أن ننظر فى بيت شعر قاله المنتبى ولم يراع فيه حسن السبك إذ قال:

فأصبحت بعد خط بهجتها كأن قفرا رسومها قلما

وكان يريد أن يقول: فأصبحت بعد بهجتها قفرا كأن قلما خط رسومها. أما إذا قال لك قائل" إن أبى سمانى محمدا" فقلت: "ولماذا" فإن النص فقد المساوقة لأن الأسماء لا تعلل. ولو تكلم النائم فوعد بشئ لم يلزمه الوفاء به لعدم القصد ولو سمعت إنسانا يقول: (السماء قام زيد) لم تقبل منه ذلك بوصفه نصا ولو سمعت إنسانا يقول لأهل الميت: (عقبى لكم) لرفضت منه ذلك لعدم رعاية الموقف وهلم جرا. وإنما يتحقق الإبداع فى المعنى برعاية كل هذه المعايير النصية وحسن الانتفاع بها وأهمها السبك والمساوقة لأنهما أساس بقية المعايير النصية ولنا الآن أن نلقى نظرة على النوعين الآخرين من أنواع المعنى وهما المعنى الذهنى والمعنى الانطباعى لنرى كيف يكون الإبداع فيهما.

٢ ـ المعنى الذهنى:

إذا كان الوصول إلى المعنى العرفى يتم بواسطة الاستقراء فإن الوصول إلى المعنى الذهنى يتم بواسطة الاستدلال. ذلك أن المعنى العرفى موجود بالقوة فى معهودات الفرد وفى الذاكرة الجماعية للمجتمع ومن هنا كان صالحا للاستقراء. أما المعنى الذهنى فغير موجود لا بالقوة ولا بالفعل ومن ثم افتقر إيجاده إلى الاستدلال الذى قد يصيب فيكشف عن هذا المعنى وقد يخطئ فيظل المعنى فى دائرة العدم مفتقرا إلى استدلال أفضل. والاستدلال قد يكون بواسطة الاستنتاج كما يكون أيضا بواسطة الاستدعاء. وفى كلتا الحالتين يكون الوصول إلى المعنى بحاجة إلى نشاط ذهنى. إذا قلت وأنت طالب بكلية الأداب مثلا: (أنا ذاهب إلى الكلية) علم السامعون من أفراد أسرتك أنك تقصد كلية الأداب دون غيرها وذلك بحكم العهد الذهنى الذى يربط بين المرسل والمتلقى فى هذا الموقف. وإذا قلت: (رأيت اليوم فلانا يصلى

الجمعة) وكان معروفا عن فلان أنه مسافر فهم السامعون بلازم المعنى أنه قدم من السفر. وإذا قال لك رجل معروف بالجبن: (أنت بخيل) فقلت (ولكنى غير جبان) فسوف يعلم من كلامك بمفهوم المخالفة أنك تعيره بالجبن.

فالعهد الذهنى ولازم المعنى والعكس ونحوها مفاهيم ذهنية غير عرفية تومئ إلى المعنى وتلقى على الذهن عبء الوصول إليه بجهد منطقى لا يلزم فيه أن يكون صوريا. فالمنطق إما أن يكون صوريا يفرض على مقدماته أن توضع فى صورة خاصة تصلح معها للوصول إلى نتائج قياسية وإما أن يكون غير صورى كالأمثلة التى قدمناها منذ قليل. وإذا أردنا أن نشرح فكرة الصورية فأقرب شئ إليها صورية المسائل الحسابية التى تفرض على الآحاد أن توضع تحت الآحاد والعشرات تحت العشرات وهلم جرا. كما تسمح عند تساوى كمية فى البسط مع أخرى بالمقام أن تشطبا معا دون أثر على النتيجة فكذلك الأمر فى المنطق الصورى الذى يحتم أن توضع المقدمات وضعا خاصا وأن يستبعد الجزء المشترك بين المقدمتين الصغرى والكبرى وعندئذ يكون الباقى هو النتيجة على النحو التالى:

الإنسان حيوان ناطق

محمد إنسان

محمد حيوان ناطق

فأنظر كيف حكمت صورة القياس بشطب لفظ "الإنسان" من المقدمتين فبقى بعد الشطب ما صلح أن يكون نتيجة القياس وهو: "محمد حيوان ناطق". هذا الترتيب الصورى لا يصلح لاستخراج المعنى اللغوى فى معمعة الاتصال وإنما يصلح فيما يرى المناطقة لنقد صحة ما يقال.

أما فى التعبير اللغوى الحر البرئ من الصورية فأقرب شئ إلى ذلك ما نعرفه فى النحو باسم "الشرط الامتناعى" كما فى قوله تعالى: ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء: ٢٢) فهذه العبارة يمكن أن يبنى منها قياس شرطى يقول:

لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا

ولكنهما لم تفسدا

إذن ليس فيهما آلهة إلا الله

جملة القول أن المعنى الذهنى فى الاتصال اللغوى ليس نتيجة قياس منطقى صورى وإنما هو نتيجة علاقات ذهنية متنوعة تربط المدركات والمفاهيم بما يترتب عليها أو بما تستدعيه إلى ذهن المتلقى.

تصور أن الشرطة علمت بحدوث القتل فى مكان ما فخف رجال المباحث الجنائية إلى المكان المذكور للكشف عن ظروف وقوع الجريمة ومحاولة معرفة الفاعل. إن أول ما يحرص عليه رجال المباحث فى هذه الحال أن يحافظوا على بقاء كل شئ على حالة للمحافظة على مصدر الاستدلال فلعلهم يجدون فى حقائق هذا الوضع ما يصلح قرينة على شئ ما قد ينكشف من دلالة خصلة شعر أو أحد أزرار قميص أو شئ لا قيمة له فى نفسه ملقى على الأرض أو نافذة مفتوحة إلخ. فإذا وجدوا شيئا من ذلك فإما أن يكون وجوده فى رأيهم عرضا وإما أن يجدوا له دلالة ذهنية على أمر ما ولا يزالون يجمعون الأدلة الذهنية حتى يصلوا بها إلى تصور متكامل لما كان عليه الموقف عند وقوع الجريمة. وعندها يسهل مع التحرى أن يعرفوا شخص القاتل. هذه صورة من صور المعنى الذهنى طابعها الاستنتاج.

ومن المعانى الذهنية المعانى الاستدعائية ومنها ما حدده البلاغيون من علاقات الكناية والمجاز المرسل. فأما الكناية فقد جعلوا علاقتها "اللزوم" . فإذا قلت : "فلان طويل النجاد" فإن طول النجاد يلزم عنه (أى يستدعى) طول القامة وإلا اضطر فلان هذا إلى أن يجر سيفه وراءه فلا تكون العبارة مدحا وإنما تنقلب إلى سخرية. وأما علاقات المجاز المرسل فإنها تعود إلى أربع من المقولات العشر هى الإضافة والكم والزمان والمكان وذلك على النحو التالى:

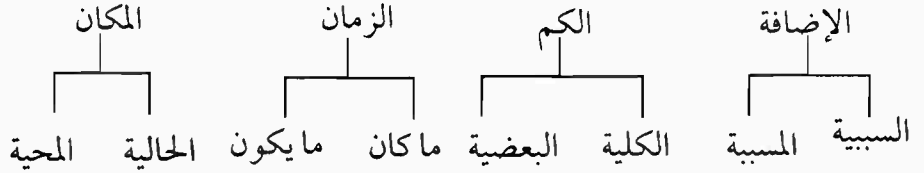

ومن المعانى الاستدعائية ما يأتى فى صورة ظل يفرض على المعنى الأصلى للفظ نتيجة التحول فى العرف فيقال عند ذلك : إن العبارة أشربت معنى كذا" أى أن

اللفظ المفرد فى النص قد يتجاوز المعنى العرفى الذى رصد له المعجم ليتحول إلى معنى آخر منحه إياه سياق خاص. فالمعروف أن كلمة "الوطن" مثلا معناها الرقعة التى ولد فيها المرء ونشأ فيها فلو أن مصريا قال: "وطنى مصر" ما أحس السامع لقوله أكثر من نسبة هذا المتكلم نفسه إلى مصر فهذا فى قوة قوله (أنا من مصر) ولكن نص بيت شوقى الذى يقول:

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى

بما فيه من مقارنة بين "الوطن" و (جنة الخلد) أعطت الوطن ظلا من المعنى لم يكن له فى المعجم وإنما جاء بالاستدعاء.

ومن المعانى الاستدعائية المعنى "الانعكاسى" الذى ينعكس بالسلب على لفظ ما فيصير هذا اللفظ غير مستحب فى السمع فمن المعروف مثلا أن لفظ "البيت" لا يسبب حرجا للمرسل ولا للمتلقى فلكل منا بيته الذى يألفه ويحبه وقد يردد كل منا بيتا من الشعر ويتوق إلى زيارة البيت الحرام. وإن "الأدب" من أرقى أنواع التعبير اللغوى وإن أى إنسان ينسب إلى "قله الأدب" لابد أن يغضب غضبا شديدا. ولكننا مع ذلك لو ضممنا أحد اللفظين إلى الآخر على نيه الأضافة فقلنا "بيت الأدب" لأصاب العبارة معنى انعكاسى فجعلها غير مستحبة لأن معناها عندئذ هو مكان قضاء الحاجة. ولو قلت لإنسان ينتسب إلى آباء يتعاطون الأدب: أنك من بيت أدب لغضب لهذه الإهانة.

ومن المعانى الأستدعائية المعنى "البؤرى" الذى يضع اللفظ فى بؤرة الاهتمام. وهذا الذى ينسبه البلاغيون إلى أثر التقديم والتأخير . وقد سبق أن أستشهدنا على هذه الظاهرة يقول تعالى: ﴿ **أَئِفْكًا ءَالِهَةً دُونَ ٱللَّهِ تُرِيدُونَ** ﴾ (**الصافات** : ٨٦). وقد يأتى هذا الظل البؤرى من المعنى من خلال التكرار بواسطة الربط بأعادة اللفظ نحو: ﴿ **وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (آل عمران). وكما فى الحديث الشريف حين سأل رجل النبى صلى الله عليه وسلم: "من أحق الناس بحسن صحابتى" قال: "أمك"، قال:

"ثم من؟" قال: "أمك" قال: "ثم من؟" قال: "أمك" قال: "ثم من؟" قال: "أبوك".

فأعطى للأم معنى وضعها فى "بؤرة" الانتباه.

أما الوصول إلى الإبداع فى المعنى الذهنى فمرتهن بالنشاط الذهنى أيضا. ففى قوله تعالى ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ لم يذكر من القياس إلا هذه المقدمة ويبقى على الذهن بعد ذلك أن يبنى القضية الثانية وهى "ولكنهما لم تفسدا" وذلك بناء على الإدراك القائم لعدم الفساد ومن ثم يصل إلى النتيجة القائلة: إذا ليس فيهما آلهة إلا الله. وفى عمل رجال المباحث الجنائية كان الوصول إلى شخص القاتل عملا استدلاليا بكل المقاييس. وفى المجاز المرسل كان على الذهن أن يستعين بالمقولات لاستنباط العلاقات وفى الكناية أدراك الذهن لزوم شئ عن شئ آخر وفى أدراك ظلال المعانى كما فى معنى تمجيد الوطن نجد الذهن ينصرف عن المعنى العرفى إلى الاعتزاز وإعلاء القيمة وفى المعنى الانعكاسى أيضا انصراف عن المعنى العرفى إلى معنى آخر ألصقه الذهن باللفظ بناء على ارتباط بين هذا اللفظ وبين أمر آخر غير مستحب. ويبقى مما ذكرنا من المعانى الاستدعائية ما أطلقنا عليه لفظ "المعنى البؤرى" وهذا يعتمد على أمر ذهنى. ليس من قبيل العرف وهو التكرار أو التقديم أو غير ذلك من الوسائل المستعملة فى تسخير اللفظ لتوكيد المعنى بواسطة التصرف فى خصائص هذا اللفظ لإخراجه من نطاق المعنى الذى تعارف عليه المجتمع اللغوى إلى معنى آخر يدركه الذهن ولا يفرضه العرف.

٣ ـ المعنى الأنطباعى:

إذا سمعت قطعة موسيقية فإنها تترك فى نفسك أثرا طيبا أو سيئا وربما أثارت فى نفسك نشاطا يتناسب مع إيقاعها أو خمولا مناسبا أيضا. وإذا صادفت شخصا تعرفه فنظر إليك بوجه متجهم فهمت من عبوسه أنه غير راض عنك. وإذا صادفت لوحة فى معرض للرسم فوجدت بها منظرا حكمت على هذا المنظر بالجمال أو بالقبح وكل أولئك يعد من قبيل الإنطباع الشخصى الذى لا يخضع لعرف ولا فكر. فقطعة الموسيقى التى أعجبتك قد لا تعجب غيرك وقد يفهم غيرك من العبوس

مرور العابس بتجربة غير سارة فيخف إلى سؤاله عما أصابه. والمنظر الذى أعجبك فى اللوحة المرسومة قد يثير عند غيرك إحساسا عكسيا يجعله ينفر منها والواضح مما تقدم أن هذا المعنى الانطباعى لا يعد من قبيل الفعل بالنسبة لمن يستقبله وإنما هو من قبيل رد الفعل. هذا شأن المتلقى لا شأن المرسل.

هذا المعنى الانطباعى من نوعين أحدهما يأتى من الانفعال والآخر عن التجربة الحية فأما من حيث الانفعال فكلنا يعلم أن الضخامة تولد الهيبة والاحترام ومن الأدلة على ذلك أن أماكن العبادة من المساجد أو الكنائس لا تكتفى من الارتفاع والعلو بما يسود فى المساكن العادية لأن المساكن العادية هى بيوت العباد أما أماكن العبادة فهى بيوت الله فمن دخلها شعر عند دخولها أنه فى مكان يستحق الخشوع والاحترام. ومن المعروف أيضا أن التفخيم فى الأصوات أضخم من الترقيق ومن هنا يمكن من الناحية الأسلوبية أن نستعمل الترقيق فى الجملة الخبرية العادية فإذا أردنا أن ندخل عليها عنصر التأكيد عدلنا عن الترقيق إلى التفخيم كما فى قوله تعالى فى معرض الأخبار عن تكوين الأرض: "والأرض بعد ذلك دحاها" ولكنه سبحانه عندما أراد تأكيد هذا المعنى فى معرض القسم قال: "والأرض وما طحاها" فجعل الطاء فى مكان الدال.

والتكرار أيضا من وسائل المعنى الانطباعى بواسطة توكيد الانفعال ويأتى الانفعال هكذا عند تكرار الصوت فى الكلمة المفردة أو تكرار الكلمة المفردة ذاتها. ففى قوله تعالى : (فكبكبوا فيها هم والغاوون) كان تكرار الكاف والباء إيحاء بأن إسقاطهم فى النار لم يكن مرة واحدة وإنما سقطوا فيها طوائف بعضها يتلو بعضا وأما تكرار الكلمة المفردة فمثاله قوله تعالى: ﴿ كَلَّآ إِذَا دُكَّتِ ٱلْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ۝ وَجَآءَ رَبُّكَ وَٱلْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴾ فقد عبرت الآية عن مبدأ التوالى بتكرار كلمتى "دكا" "صفا" فكان المعنى توكيدا لفظيا.

والإيقاع أثر حسى سمعى له معنى انطباعى يحسه (أى يفهمه) من يسمعه سواء أكان هذا الإيقاع فى الموسيقى أم كان إيقاعا لغويا نثريا أم شعريا. ولقد سبق منذ قليل أن أشرنا إلى التكرار الذى قرأناه فى عبارتى: "دكا دكا ... وصفا صفا" ونود

أن نشير الأن إلى ما سبق هاتين من عبارتين أخريين هما: "أكلا لما ... وحبا جما". وما يحسه القارئ فى العبارات الأربع من إيقاع لا يخفى على ذى سمع. أما فى الشعر فالأمر أشهر من أن يبالغ فى شرحه حتى إن بعض ذوى النظر فى أغراض الشعر يربطون بين بحور الشعر فى تباينها وبين أغراضه فيرون أن طوال البحور أولى بالأستعمال للأغراض الجادة وقصارها ألصق بالأغراض المرحة فالطويل والبسيط مثلا يناسبان الفخر والهجاء والمدح والرثاء ونحوها ولكن المتقارب والمتدارك مثلا أولى بالأغراض المستخفة وبين الطائفتين أبحر توزعها الأغراض ومنها الرجز الذى يسمونه "حمار الشعر".

ومن المؤثرات الشخصية حكاية الصوت للمعنى وهى غير ما ذكرناه منذ قليل من أن الضخامة والتفخيم يثيران فى النفس الهيبة أو التأكيد. ذلك أن الصوت هنا لا يوحى فقط بل يحكى المعنى ويقر به إلى الفهم أكثر مما يفعل الإيحاء. أنظر مثلا إلى قوله تعالى : "ما لكم إذا قيل لكم أنفراو فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض" فستجد أن أصل الفعل "تثاقلتم" وكان يمكن أستعماله على حاله لأداء المعنى العرفى وهو التثاقل . ولكن الآية آثرت أن تحول المعنى العرفى إلى معنى آخر انطباعى فعمدت إلى استعمال حكاية الصوت للمعنى. كان ذلك بواسطة إدغام المتقاربين (التاء والثاء) واجتلاب همزة وصل فى أول الكلمة للتوصل إلى نطق الجزء الأول من التاء المشددة. أين إذا كانت حكاية الصوت للمعنى؟ إن الثاء صوت رخو يعتمد فى نطقه على تسرب الهواء من منطقة المخرج فيبدو فى السمع كأنه إفراغ طاقة محبوسة. أرأيت إلى إطارات عجلات السيارة لو بدأ الهواء يفرغ من داخلها أفتكون السيارة بعد إفراغ عجلاتها قادرة على الحركة أم تبقى حيث هى وقد أخلدت إلى موقعها من الطريق. إن رخاوة الثاء المشددة تحكى إفراغ أطر هذه السيارة وهكذا يبقى هؤلاء المتثاقلون حيث هم فلا يذهبون إلى النفرة فى سبيل الله.مثل هذه الحكاية ما نجده من حكاية الإصرار على الخصومة فى قوله تعالى: "تأخذهم وهم يخصمون"، وحكاية انغلاق القلب عن الهداية فى قوله تعالى: "أمن لا يهدى إلا أن يهدى" إذ يتمثل الأنغلاق فى شديد الدال وحبس الهواء أثناء نطقها.

وثمة نوع آخر من الحكاية يكون بارتجال ألفاظ لا وجود لها فى اللغة. من ذل أن المعروف أن عالمنا هذا الذى نعيش فيه لا يعرف شجرة تسمى شجرة الزقوم. فهى "شجرة تخرج فى أصل الجحيم طلعها كأنه رؤوس الشياطين"وقد ارتجلت الآية هذا الاسم للشجرة المذكورة وجعلت الاسم يحكى أهم خواصها وهى أنها "طعام الأثيم" "يأكل" الضالون المكذبون "من ثمرها فيملأون منه البطون فكيف كانت صياغة اسم الشجرة؟ أول ما يربط هذا الاسم بالطعام اشتمال الأسم على الزاى والقاف ومنهما يتكون الفعل "زق الطائر فرحه" أى أطعمه ثم نلاحظ أن القاف جاءت مشددة فكانت أطول مدة فى نطقها من القاف المفردة مما يحكى بقاء اللقمة دون ابتلاع وهى توشك على ذلك بوجودها فى مخرج القاف. ولو أن طول مكثها دون إساغة اقتصر على طول نطق القاف لهان الأمر ولكن الآية عدلت عن ضم القاف بالضمة القصيرة إلى استعمال واو المد فأطال ذلك من حكاية بقاء اللقمة على وشك الابتلاع. ثم بعد هذه المعاناة تأتى النهاية محكية أيضا وذلك بوجود الميم فى نهاية الاسم. إن المرء يستطيع أن يشرب السوائل بإفراغها فى فم مفتوح وشفتين متباعدتين. ولكنه لا يستطيع ابتلاع اللقمة وهو بذلك الوضع ومن هنا كانت الميم فى نهاية الاسم حكاية لضرورة إقفال الشفتين عند البلع الذى يتم بعد هذه التجربة القاسية.

سبق أن قلنا أن المعنى الانطباعى قد يأتى عن طريق التأثر وقد يكون عن طريق التجربة الحسية pragmatic والمعروف أن التنافس بين الأقران للوصول إلى النجاح أمر مطلوب غير أن أحد المتنافسين قد يبالغ فى اتباع الوسائل المؤدية إلى النجاح حتى يعمل دون قصد على إفشال جهود الآخر عندئذ يكون من المعقول أن يفهم الآخر أن التنافس قد تحول إلى تنافر أو تناجز ثم يتصرف إزاء صاحبه فى ضوء هذا الفهم. وقد يكون بينك وبين أحد صداقة متينة طال عليها العهد حتى أصبحت أقرب إلى مرتبة الإخاء ثم يعرض له المرض ولا تعلم أنت بمرضه ويظل هو يطمع أن تعوده فلا تعوده فيفهم من ذلك أنك تنكرت للصداقة ويقف منك موقفا مناسبا لهذا الفهم. وقد تبحث عن مسكن تسكنه فتصادف حيا نظيفا من أحياء المدينة تكثر فيه المساجد فتبادر إلى سكناه راضيا عنه ثم يتكشف لك بعد قليل أن كثرة المساجد

التى أغرتك بسكنى الحى لها جانب آخر يزهدك فى سكنى هذا الحى فبالمساجد مكبرات للصوت تعمل بأقصى طاقتها وأئمة هذه المساجد يتنافسون فى إلقاء دروس قبل الصلوات أو بعدها ويطيلون فى الخطبة يوم الجمعة.

وقد تتعدد المعانى الانطباعية فى فهم التجربة الواحدة بعينها وكل هذه المعانى صادقة كما فى قوله تعالى فى شأن المنافقين: ﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴾ (النور : ٤٩ ـ ٥٠). وواضح من سياق الآيات أن هؤلاء المنافقين يعلنون الإيمان والطاعة ثم يتولون عن الانتظام فى صفوف المؤمنين ثم إنهم إذا دعوا إلى عرض خصوماتهم على النبى صلى الله عليه وسلم أعرضوا إلا أن يكون الحق فى جانبهم فيعلموا أن حكم النبى سيكون فى صالحهم. من هنا يأتى فهم موقفهم على النحو التالى:

١ ـ معنى توليهم عن الإيمان بعد إعلانه أن فى قلوبهم مرض.

٢ ـ ومعنى إعراضهم عن التقاضى أمام النبى أنهم ربما كانوا يرتابون فى حكمه.

٣ ـ إن عدم إيمانهم برسالة النبى يدعوهم إلى الشك فى عدالة شرع الله الذى يطبقه الرسول.

وقد جاء نص ذلك على النحو التالى: "أفى قلوبهم مرض أم ارتابوا أم يخافون أن يخيف الله عليهم ورسوله" ويعقب على ذلك بقوله: "بل أولئك هم الظالمون".

رأينا عند هذا الحد أن المعانى أنواع بعضها يستند إلى العرف ويحدده اتفاق الجماعة اللغوية فاستعماله يتطلب القياس على ما أرتضاه المجتمع فمن أراد الإبداع فسبيله إلى ذلك هو الخروج على العرف بإحدى الوسائل التالية:

١ ـ اللجوء إلى التصرف فى معنى العنصر اللغوى العرفى الواحد بنقله إلى أحد المعانى الأخرى بحيث يحقق للمبدع مؤشرًا أسلوبيا معينًا كاستعمال "إذ" بمعنى المصدرية نحو قوله تعالى : **"ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا"** أى بعد أن هديتنا.

أو بنقل "إذ" إلى التعليل نحو "وإنه فى الآخرة لمن الصالحين إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين" أى لأنه حين قال له ربه أسلم قال أسلمت.

٢ ـ ومن النقل ايضًا المجاز ولا ضرورة لتفصيل القول فيه لشهرته.

٣ ـ ومنه نقل نمط الجملة من معناه العرفى إلى معنى آخر وقد سبق القول فى ذلك.

٤ ـ اختيار أحد المعانى المتعددة للعنصر الواحد واستعماله بهذا المعنى مع قرينة تمنع إرادة غيره كما فى قوله تعالى:﴿ لِيَأْكُلُوا مِن ثَمَرِهِۦ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ ﴾ "فلفظ "ما" صالح هنا للموصولية وللنفى ولكن قرينة قوله تعالى بعد ذلك: :﴿ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴾ تجعل النفى هو المعنى المطلوب لأن الذى يأكل شيئًا لم تعمله يده أولى أن يشكر من قدمه له.

ومثل ذلك أيضًا إضافة المصدر فى قوله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ فالمصدر "دعاء" يصلح هنا للإضافة إلى فاعله أو إلى مفعول أى أن الرسول إما إن يكون داعيًا وإما أن يكون مدعوّا، ولكن قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا ۚ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ يدل على أن الرسول كان هو الذى يدعوهم وأن بعضهم كان يتسلل لعزوفه عن الاستماع لما يقوله الرسول وقد حذر الله سبحانه هؤلاء المتسللين من الفتنة والرجوع عن الإسلام أو العذاب الأليم فى الآخرة.

ويعزز كون الرسول هو الداعى قوله تعالى:﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَىٰكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا ﴾ .

٥ ـ الترخص فى قرائن المعنى وهى الإعراب والبنية والإداة والتضام والرتبة والربط فكل واحدة من هذا القرائن قد تزيد عن حاجة أمن اللبس فيصبح المعنى واضحًا بدونها وعندئذ يمكن الترخيص فيها بعدم رعايتها فى الكلام ومن ذلك ما يلى:

أ ـ الإعراب: من الترخص فى الإعراب ما يسميه النحاة "إعراب الجوار نحو" جحر ضب خرب" وقولهم: "خرق الثوب المسمار" وقوله تعالى: "ولكن البر

من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والبنين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين الباس".

ب ـ البنية: نحو أمن لا يهدّى إلا أن يهدى: ﴿ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾(البقرة: ١٧٨) ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلْ يَاسِينَ ﴾ (الصافات: ١٣٠)﴿ وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝ وَطُورِ سِينِينَ ﴾ (التين: ١ ـ ٢) ﴿ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا كِذَّابًا ﴾(النبأ: ٢٨).

ج ـ الأداة: ﴿ هَلْ فِى ذَٰلِكَ قَسَمٌ لِّذِى حِجْرٍ ﴾ (الفجر: ٥) (المعنى على التعجب) ـ ﴿ ٱلْحَآقَّةُ ۝ مَا ٱلْحَآقَّةُ ﴾ (الحاقة: ١ ـ ٢)(تعجب أيضًا) ـ لتلا يعلم أهل الكتاب " (أى ليعلم) ـ ﴿ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴾ (الأنعام : ١٢١)(أى فإنكم).

د ـ التضام: نحو ﴿ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾ (يس:١٦) (أى تطيرتم) ـ ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴾ (الواقعة : ٧٥)(أى فأقسم بدليل وإنه لقسم) ـ "وتلك نعمة تمنها على (أى أو تلك نعمة) ـ ﴿ وَلَئِن قُوتِلْتُمْ لَنَنصُرَنَّكُمْ ﴾ (الحشر: ١١) (أى ولئن قوتلتم).

هـ ـ الرتبة: نحو " ﴿ وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ﴾ (هود : ٣٨) (أى سخروا وهو يصنع الفلك) " وهى تجرى بهم فى موج كالجبال ونادى نوح أبنه" (أى نادى نوح ابنه وهى تجرى).

و ـ الربط : ﴿ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ ﴾ (البقرة: ٤٠) (أى أنعمت بها) ـ ﴿ وَقُضِىَ ٱلْأَمْرُ وَٱسْتَوَتْ عَلَى ٱلْجُودِىِّ ﴾ (هود : ٤٤) (الضمير لسفينة لم يرد ذكرها) ـ ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَـٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ ﴾ (الزمر: ٦٩) (الضمير فى بينهم ويعود على الخلق كلهم ولم يرد لهم ذكر) ـ ﴿ قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ (فصلت : ١١)(أى طائعتين).

هذه أمثلة وشواهد قليلة تشهد على ظاهرة واسعة الانتشار هى ظاهرة الترخص عندئذ أمن اللبس وهى صور الإبداع فى الأسلوب أضف إلى ذلك ما يعرض للسياق من فصل أو حذف أو إضمار أو قصرًا وإيجاز أو غير ذلك من طرق الإبداع فى حدود المعنى العرفى.

أما المعنيان الذهنى والانطباعى فليسا مطابقين للاستعمال الاجتماعى وإنما هما نشاط فردى يختلف من فرد إلى آخر ومن ثم يعد كل منهما إبداعا شخصيا.

حضارة كل شعب هى قوام شخصيته، وشارة هويته، ووعاء أفكاره وتجاربه، ومعالم الطريق أمام أجياله. بمقاييسها يكون الانتماء، وبحدودها يمتاز الصواب من الخطأ، وعلى هدى منها يقوم السلوك الفردى والجماعى. ولكل حضارة إطارها الروحى والفكرى ومظهرها المادى. وهذا المظهر المادى من الحضارة يعرف باسم المدنية، على حين يغلب فى العنصر الروحى والفكرى أن يعرف باسم التراث. فالمذهب الفكرى والتجربة الروحية والأداة فى يد الصانع كل أولئك من عناصر الحضارة، ولكن المذهب والتجربة تراث، والأداة والألة من قبيل المدنية. وربما اشتمل الشيء الواحد على الجانب التراثى والجانب الاجتماعى فى وقت معا. أرأيت إلى ما تركه الأجداد من بيمارستان أو سبيل أو حمام، إن الجانب النفعى من كل أولئك مدنى ولكن طراز بنائه تراث إسلامى، وكلا الجانبين ينتهى إلى مفهوم الحضارة.

والمقصود بألفاظ الحضارة ما يعبر به عن عناصر التراث وعناصر المدنية على حد سواء. فما يدور من الفاظ حول الأفكار أو العادات أو التقاليد أو الملابس أو الركائب أو الأثاث أو المشرب والمأكل أو التجميل أو الترفيه أو اللعب والرياضة أو الأنشطة الاجتماعية أو المهن والأدوات أو الأوزان والمكاييل والمساحات والمنشآت ووسائل الإعلام والسياسة والاقتصاد والاجتماع والعلاقات الدولية والاتفاقات والمعاهدات كل ذلك ينتمى إلى ألفاظ الحضارة، لافرق فى ذلك بين الأسماء والأفعال. فقد يكون لاعب الكرة مثلا "سنترهاف" وقد "يسنتر" الكرة و "يشوطها"، والأول وصف للاعب والثانى تعبير عما يفعلة وقد اشتق الثانى من الأول.

وإذا ذكرنا "ألفاظ الحضارة" فأى حضارة نعنى؟ أهى حضارة عربية قامت على مفاهيم عربية خالصة تضرب جذورها فى أعراف المجتمع الجاهلى وتقاليده، ثم يلحقها أو يلحق بها ما أضافه المسلمون العرب إلى التصورات والمسالك الجاهلية وما ألحقوه بها من تعديل؟ قد يفهم بعض الناس ما نمارسه من صور الحضارة هذا الفهم، وبخاصة إذا نظروا إلى الأخيلة الشعرية الحاضرة وإلى معجم الشعراء وديباجة الشعر، أو نظروا إلى ما يسود مجتمعاتنا خارج المدن الكبرى من دعوى الجاهلية والأخذ بالثأر ومن الحمية وقرى الضيف مما لا تجده فى مجتمع آخر معاصر فى هذا العالم. ثم من الغيرة على الأعراض وبخاصة ما يتعلق منها بالنساء، إلى غير ذلك مما يذكره الأدب العربى منسوبا إلى المجتمع الجاهلى. أم هى حضارة متأثرة بالطرق الغربية فى السلوك بكل زخمها المادى ومفاهيمها الجديدة الوافدة التى لم نكن نألفها فيما مضى؟ لقد تعودنا منذ الحملة الفرنسية على مصر أن نجلس من الغرب مجلس التلميذ المنبهر بما لدى أستاذه من علم ومعرفة، وما زلنا نأخذ عنه دون تمييز بين ما ينفع وما لا ينفع. وكذلك فعل أقوام آخرون فى مشارق الأرض، وتقدمت اليابان معتمدة على حضارة الغرب حتى قال البعض إن حضارة الغرب لم تعد غربية كما بدأت وإنما أصبحت حضارة عالمية من حق كل شعب أن يدعى أنه أضاف إليها إضافته الخاصة على نحو ما أضاف الصينيون طب الإبر وأضاف اليابانيون صناعة الإلكترونيات الخ.

وإذا تأملنا القول بعالمية الحضارة واطمأننا إلى أننا أصحاب حضارة عربية ينتمى إليها جميع العرب صادفنا عندئذ صعوبتين إحداهما أن التراث الشعبى العربى ربما اختلف فى بلد عربى عنه فى بلد آخر، وان البيئة العربية ربما تنوعت جغرافيا فجاز تقسيم العرب إلى مجتمعات مختلفة بين وديان الانهار وبين الصحراء، ثم إلى بلاد متوسطية وأخرى موسمية، وبلاد أفريقية ليست من هذه ولا من تلك. وإن الناظر ليسهل عليه أن يلاحظ فيمن ينتسبون إلى العروبة شيئا من الاختلاف فى التصور والسلوك. بل إن بعض هؤلاء فى أطراف الرقعة العربية ربما عرف من السلوك ما

يجعله أقرب إلى جيرانه من غير العرب فى بعض النواحى كما فى الموسيقى السودانية ورقصة الدبكة اللبنانية. فكيف نفرد حضارتنا بوصف يحددها إذن؟ إننا إذا نظرنا إلى تراثنا وإلى حاضرنا وجدنا العنصر الثابت فى حياتنا هو الإسلام أولا ثم لا تأتى العروبة إلا ثانيا. ومع صرف النظر عما إذا كان سلوكنا الفردى مطابقا أو غير مطابق لتعاليم الإسلام، وعما إذا كانت تشريعاتنا إسلامية أو غير إسلامية فإننا لو بحثنا فى ضمير كل منا لوجدنا الانتماء النفسى إلى تراث الإسلام. ومن هنا يصح أن نرى أن حضارتنا المعاصرة حضارة إسلامية الانتماء. وإن ارتضخت فى كل بلد مسلم لكنة محلية مذهبية خاصة بهذا البلد، مثلها فى الوحدة والتعدد مثل اللغة ولهجاتها المتعددة.

كان احتكاك الحضارات فى الماضى يتم بواسطة الحروب أو التجارة أو الدعوة الدينية، وكانت العناصر التى تأخذها حضارة عن أخرى فى الأغلب الأعم أكثر صلة بالجانب المادى منها بالجانب الروحى، لأن المعنيين بالأفكار والمعتقدات عند انتقالها من حضارة إلى آخرى غالبا ما يكونون أفرادا. أما الأدوات والمأكل والمشرب ونحوها فشأنها أن تكون أسرع انتشارا من الأفكار والمعتمدات. كان ذلك فى الماضى، أما الانتقال الحضارى فى زماننا ففرصته أكبر دون شك. إن وسائل الإعلام ومعاهد العلم واتساع شبكة العلاقات الدولية (وبخاصة فى المجال الاقتصادى والثقافى والحياة العامة) جعلت الأرض على اتساعها قرية واحدة تسبح فى الفضاء وتطمح إلى الاتصال بالكواكب الأخرى. من هنا ينتشر التبادل الحضارى وتصير الغلبة والعطاء من نصيب المتقدم ويصير الأخذ والتأثر من نصيب المتخلف. ولقد بدأنا الأخذ عن الحضارة الغربية منذ الحملة الفرنسية وما زلنا نأخذ عن الغرب، وفى أخذنا عن الغرب لم يكن الانتقاء من همنا، وإنما دفعنا الإعجاب الشديد والانبهار العظيم إلى تقبل الطيب والخبيث دون تمييز حتى انتهينا إلى انفصام حضارى آيته أن معاهد التعليم عندنا اصبحت من نوعين أحدهما إسلامى ينتمى إلى حضارتنا والثانى حديث ينتمى إلى علمانية الغرب. ويبلغ بعد الشقة بين

أحدهما والآخر مبلغ عسر التفاهم بين فريقى المتعلمين. وهذا مثال واحد من أمثلة متعددة.

وما نوع الألفاظ التى وفدت علينا من الحضارات الأخرى؟ للإجابة على هذا السؤال نبدأ باستبعاد ألفاظ المصطلحات العلمية لسببين: الأول أنها تقع خارج اهتمامنا فيما نحن بصدده فى موضوعنا الحاضر، والثانى أننا حتى لو وضعنا العلم ضمن عناصر الحضارة (وهذا صحيح) فإن ما يرد على المصطلحات من إجراءات لغوية قد يختلف من حيث المنهج عما يعرض من ذلك لألفاظ الحضارة. وسنجد كذلك أننا مضطرون إلى استبعاد ألفاظ التراث، لأنها مستقرة لا تتغير، ولأن معظمها مصطلحات، يصدق عليها ما صدق على المصطلحات الأخرى من وقوعها خارج دائرة الموضوع. يبقى لنا إذن ألفاظ الجاتب المادى، أو ما سميناه المدنية من قبل. ولنا هنا أن نلاحظ أن فى العنوان المقترح للبحث عموما ما يصبح العنوان به مبهما، لأنه يشمل الألفاظ العربية الأصل والألفاظ الوافدة على حضارتنا، ثم لا يبين نوع التصدى لهذه الألفاظ: أيكون الكلام عن طرق انتقالها أم طرق إخضاعها للصياغة العربية... الخ. ومهما يكن من أمر فإن هذه الألفاظ تقع فى طوائف كثيرة نمثل لها بما يلى:

١ - الملابس: جاكت، بنطلون، جزمة، بونتوفل، كرافات، بيريه، بالطو.

٢ - الركائب: أوتوبيس، بيسكيليت، موتوسيكل، نليفريك، أوتوموبيل، لانش.

٣- الأثاث: الكنبة، الفوتى، الشوفينيرة، البوفيه، الطربيزة، التوستر.

٤ - التجميل: سيشوار، لوسيون، ريميل، بروكة، روج، مساج، كريم.

٦ - الرياضة: بينج بونج، تنس، باسكت، تيم، فوتبول، كريكيت، سبورت.

٧- الترفيه: تياترو، سينيما، فيلم، كاسيت، فيديو.

٨ - الأنشطة الاجتماعية: دانس، بارتى، فاكس، فيزيت.

٩ - المؤهلات: ليسانس، بالكالوريوس، ماجستير، دكتوراه.

١٠ - المهن: الاوسطى، الجزمجى، الميكانيكى، الكوافير.

١١ - الأدوات: الماكينة، الجيربوكس، الفيتيس، البوجيه، السنبك، الطفاشة.

١٢ - الاوزان: جرام، كيلو، طن.

١٣ - المكاييل: لتر، جالون، برميل.

١٤ - الأعداد: مليون، مليار، بليون، تريليون.

١٥ - المساحات: إنش، متر، ياردة، كيلو متر، هكتار، فدان.

١٦ - المنشآت: تيراس، بلكونة، فيلا، شاليه.

١٧ - الإعلام: راديو، تليفزيون، جورنال، مانشيت، كليشيه، بنط.

١٨ - سياسة: برلمان، ديمقراطية، فديرالية. كمونويلث، بروتوكول.

١٩ - اقتصاد: شيك، بنك، درافت، كامبيو، كومبيالة.

٢٠ - اجتماع: فاميليا، سكرتير، دوسيه، بارتى.

٢١ - مؤسسات: ناتو، أليكسو، إسيسكو، أوبيك، يونسكو.

وبعد، فما موقفنا من هذه الكلمات الوافدة على لغتنا؟ للإجابة على هذا السؤال يحسن أن نعود إلى ما كان يصنعه السلف من علمائنا بالكلمات التى جائت مع احتكاك المجتمع العربى وعلمائه بالثقافات والشعوب الأخرى وبخاصة حين اشتغلوا بترجمة العلوم عن التراث اليونانى. وحين واجهوا الكلمات الوافدة سألوا أنفسهم مع كل كلمة نوعين من الأسئلة:

- هلى تتفق أصوات هذه الكلمة مع أصوات النطق العربى؟
- هل تتفق صورة هذه الكلمة مع إحدى صيغ الصرف العربية؟

فأما الأجابة على السؤال الأول فالمشهور عنهم أنهم سددوا وقاربوا. فإذا اتفقت الأصوات مع الأصوات فذلك، وإلا بحثوا فى النظام الصوتى العربى عن أقرب طرق النطق إلى ما اشتملت عليه الكلمة الوافدة، وقد وصلوا بذلك إلى شبه معادلات أو مقابلات صوتية مطردة بالنسبة لما لا مقابل له من أصوات العربية على النحو التالى:

١- "g" نقل السلف هذا الصوت إلى العربية فى صورة "غ"، فقالوا مثلا: فيثاغوراس وأخذنا ذلك عنهم فقلنا فونوغراف وجغرافيا ونحو ذلك من الألفاظ المعربة. ويبدو أن الألفاظ التى عربت فى العصر الحديث والمشتملة على هذا الصوت استعملت فى النطق المصرى مع رواج الصحف التى أنشأها المهاجرون اللبنانيون مثل المقطم وغيره. أما بعد مرور هذه الفترة فقد حلت الجيم القاهرية محل الغين، ونشأت ألفاظ مثل: هامبرجر وديجول وجامبيا وجالون ونحو ذلك.

٢- "v" نقل السلف هذا الصوت إلى العربية على صورتين مختلفتين: أولاهما صوت الباء والثانية صوت الواو، حتى إن الكلمة الواحدة ربما احتملت نطقين مختلفين. فالكتاب المقدس عند الزراد شتيين يسمى Avista وقد نقل السلف ذلك مرة بلفظ أوستا ومرة أخرى بلفظ أبستاق. غير أننا فى الحاضر نبدى الكثير من التسامح مع هذا الصوت وبخاصة فى اوساط المثقفين أو نقابله بصوت الفاء كما فى نطق كلمتى تليفزيون وفيديو.

٣- "p" قابل السلف هذا الصوت بمقابلين عربيين أحدهما الباء والآخر الفاء، حتى إن كلمة واحدة يمكن أن تأتينا على صورتين. فالكلمة اللاتينية ponticos تتحول فى العربية إلى صورتين إحداهما "بندق" والأخرى "فندق". أما فى زماننا فنحن أكثر تسامحا مع هذا الصوت، فربما ورد على هيئة نطقه الأصلى على ألسنة المثقفين أو على هيئة الباء فى النطق العام كما فى ألفاظ مثل "باسبورت" و "بور سعيد" و "برنامج" ونحوها.

٤- "j" لا يكاد هذا الصوت يمثل قضية ما فى النطق السورى واللبنانى والمغربى، ولكنه يتحول فى بقية البلاد العربية إلى نطق الجيم الفصيحة كما وصفه المحدثون والمعطشة كما وصفه النحاة والقراء القدماء وهو الذى يبدأ بحبس الهواء فى منطقة الغار ثم بتسريحه على النحو الذى يسمى "التعطيش". فالجيم السورية والمغربية تعطيش خالص، وهى عند البلاد العربية الأخرى كالحجاز

مثلا معطشة. غير أن مثقفينا فى الوقت الحاضر ربما ردوها إلى نطقها الأصلى فى الكلمات المعربة مثل "جورج" و "جيهان". أما كلمة "جاهين" فتبقى كذلك على ألسنة البعض وربما حولها آخرون إلى لفظ "شاهين"، وهو لفظ عربى يعرف به نوع من الطيور الجارحة.

٥- "x" يغلب على هذا الصوت المركب عند نقله إلى العربية أن يبقى على صورة لفظ "كاف ساكنة بعدها سين كما فى لفظ" بكس" بضم الباء. ولكنه ربما صادف قلبا مكانيا كما فى لفظ "الإسكندرية".

٦- "ch" مع أن هذا الصوت لا يعدو أن يكون جيما معطشة مهموسة فإنه يغلب فى نقله إلى العربية أن يحوله البعض إلى تاء ساكنة بعدها شين كما فى لفظ "متش" اى مباراة. ولكن إذا وقعت التاء فى ابتداء الكلام خضعت لعدم حواز النطق بالساكن فتحركت بالكسر كما فى نطق "تشر تشل".

هذا ما كان فى الماضى وما يكون فى زماننا بالنسبة للمقابلات الصوتية. أما بالنسبة للسؤال الثانى عن الموقف من الصيغة الصرفية المناسبة للكلمة الوافدة فقد كان السلف إذا صادفوا الكلمة ذات وزن شبيه بأوزان الكلمات العربية رضوه واستقروا على استعماله كما فعلوا بلفظ "الإلياذة" الذى يشبه مصدر الرباعى الدال على المرة مثل "إطلالة"، أو مؤنث وزن إفعال مثل "إنسانة". أما إذا لم توافق الكلمة وزنا عربيا فإما أن يحولوها إلى وزن عربى كما فى "فلسفة" على وزن "هرولة"، وإما أن يلتمسوا لها أقرب وزن إلى الأوزان العربية كما فى "موسيقى" و "هيولى". فإذا لم يمكن ذلك جاءوا بها على صورتها، وربما أصابها تغيير طفيف فى نبرها أو فى تقصير مدها أو تطويل حركة فيها كالذى تلحظه فى كلمات مثل "أريثماطيقا" و "هرمنيوطيقا"، أو تغيير بنيتها الحركية كما فى "هرقل" و "أرتيون" الذى صحف اسمه إلى أرطبون كما نطق به عمر بن الخطاب رضى الله عنه.

ما الوسائل المتاحة لنا الآن لصياغة ألفاظ الحضارة؟

هناك طرق متعددة لصياغة اللفظ العربى فى التعبير عن المفهوم الحضارى الوافد. من ذلك: ألارتجال ـ وتعديل الدلالة ـ والترجمة ـ والتعريب.

فأما الارتجال فهو أن تنشئ الكلمة إنشاء مع الالتزام بشروط الصياغة العربية من الناحيتين الصوتية والصرفية، والمقصود بالصياغة الصرفية أن تراعى شكل الصيغة (بما فيها من أصول وزوائد وميزان) وكذلك معنى هذه الصيغة. ولو أخذنا الأدوات والآلات مثلا ونظرنا فى كيفية ارتجال ألفاظها فى الوقت الحاضر لوجدنا إقبالا على صيغتى "فعّال و "فعّالة" (بتشديد العين فيهما) خصما من استعمال صيغتى "مفعل" و "مفعلة"، أو "مفعال" و "مفعالة" ذوات الشهرة فى تسمية الآلات. مثال ذلك تسمية ما يعرف فى الإنجليزية باسم master kee على ألسنة المهنيين باسم "طفاشة" كما أخذوا من لفظ powder "بذّارة" (بتشديد الدال) وارتجل العسكريون لفظ "دبابة"، وكذلك كانت الحال فى صيغ أخرى لمعان أخرى، فوجدنا مثلا لفظ "سنبك" و "عجلة" و "كريك" و "شطاف" و "جرّار" الخ.

وعهد الثقافة العربية طويل فيما يتصل بالانتفاع بتعديل الدلالة. ولا يجهل أحد من طلاب التراث ما يصادفه من قولهم فى تعريف مفهوم ما: هو لغة كذا واصطلاحا كذلك، فيستدل المرء من ذلك على ما حدث من تحويل الدلالة اللغوية إلى دلالة أخرى اصطلاحية إما بواسطة توسيعها أو تضييقها أو تغييرها تماما. ومع أننا هنا بصدد الكلام عن ألفاظ الحضارة لا عن المصطلحات ما يزال ما قلناه فى شان تحول الدلالة صادقا، لأن اختيار اللفظ من ألفاظ الحضارة ربما حافظ على رعاية الوظيفة العملية لأصل الدلالة. فلفظ الطيارة مثلا صيغة مبالغة من الطيران تصدق على كل ما يطير، ولكن الدلالة العامة التى يشير إليها لفظ "كل" السابق ضاقت فاختص اللفظ بمفهوم معيّن هو "وسيلة انتقال الإنسان بالارتفاع عن سطح الأرض إذ يحمله الهواء". أما إذا استعمل هذا اللفظ بمعناه العام فإنه يتحول من مصطلح إلى وصف (أى صيغة مبالغة) فقيل مثلا: الحشرات الطيارة، والزيوت

الطيارة الخ. ويمكن أن يقال مثل ذلك فى السيارة والبراد والثلاجة والغسالة وقد يكون لفظ "الدبابة" ايضا من هذا القبيل محولة عن معنى كل ما يدب على الأرض.

أما ترجمة المصطلح من اللغة الأجنبية إلى اللغة العربية فقد شاعت فى الوقت الحاضر وشاع سوء أستعمالها أيضا. وتكمن المخاطر الجسيمة لهذا النوع من النشاط فى أسباب واضحة أهمها أن معظم المترجمين للمصطلحات كانوا فى ماضيهم طلابا فى جامعات الغرب يتلقون العلم بواسط المصطلحات الأجنبية، وينشئون اطرهم الفكرية من خلال هذه المصطلحات. وقد يفكر أحدهم فى كيفية التعبير بالعربية عن مفهوم اصطلاحى ما فيصل مستقلا إلى ترجمته دون أن ينظر فى احتمال وجود ترجمة له سابقة قام بها غيره. حتى إذا عاد إلى بلده العربى عاد وفى جعبته عدد من محاولات الترجمة التى تفتقر إلى شرط العرفية الواجبة للمصطلح. وهكذا تختلف محاولات الترجمة للمصطلح الواحد حتى فى حدود المؤسسة العلمية الواحدة. فإذا اخترنا مثالا لهذا التعدد من مجال الدراسات اللغوية الحديثة وجدنا الصور الآتية من الاختلاف:

عند سيبويه	تراثى	مترجم
أصل	حرف (عام	فونيم
فرع	ـــــ	فونيم
ـــــ	صحيح	ألوفون
ـــــ	صامت	ـــــ
ـــــ	ساكن	ـــــ
ـــــ	علة	صائت

ولكننا فى هذه المرة ايضا غير معنيين بالمصطلحات، بل همنا أن نتناول ألفاظ الحضارة. ومن الواضح أن تسمية المفهوم الحضارى الواحد تختلف من بلد عربى إلى بلد آخر. أنظر كيف تختلف الألفاظ الدالة على مفهوم واحد بين "البسكويت" و "البسكوت" و "البشقيط"، وكيف تختلف أسماء الصحف اليومية بين "الجريدة" و"الجورنال" و "الغازيطة" فتتراوح الأسماء بين الترجمة والتعريب. وإذا نظرنا إلى

أسماء العلوم نظرتنا إلى ألفاظ الحضارة (وهى منها بطبيعتها) لها لنا أن نجد للدراسات اللغوية الحديثة الأسماء التالية:

علم اللغة، اللسانيات، اللسنية (بضم اللام، فقه اللغة، الألسنة، اللسنيات (بضم اللام أيضا.

ولم يستقر الدارسون العرب على أحد هذه الأسماء حتى وقتنا الحاضر.

لاجدال فى أننا نسعى جميعا إلى تنمية اللغة العربية الفصيحة، ونعمل على أن نجعلها لغة علم وفن وثقافة، وأن نرفع من مستوى كفاءتها الأدائية حتى يمكن لها أن تنافس أو تساوى فى الحيوية لغات العالم المتقدم. ولا شك أن طواعية اللغة العربية وطاقتها الهائلة فى توليد الألفاظ ومرونة الأساليب تبشران بوصولها على أقصى درجات الكفاءة إذا توحدت الجهود وتضافرت الوسائل الموصلة إلى هذه الغاية الضرورية للبقاء فى حلبة تنافس الشعوب. ولكن الجهود فى الوقت الحاضر غير موحدة، وقد ضربنا الأمثال لتفرقها منذ قليل بإيراد عدد من الأسماء للمفهوم الواحد. ولعل هذا التشتت يمثل أكبر خطر يواجه مستقبل العربية. كيف يمكن أن تنمو اللغة الفصحى بجهد الناس فى أحد أقاليمها إذا كان الناس فى الأقاليم الأخرى يعرقلون هذه الجهود بإهمال نتائجها واستعمال الفاظ تنافس ما وضعه إخوانهم فى تلك الأقاليم الأخرى؟ إن اختلاف الألفاظ الحضارية فى البيئات العربية المتعددة لابد أن يؤدى إلى إضعاف الروابط العربية، وإلى تشتيت الجهود الرامية إلى المحافظة على وحدة الأمة وحضارتها لئلا تخضع لغزو حضارى اجنبى.

إن وحدة الأمة تعنى وحدة الضمير والإرادة، وهما لا يتحدان إلا إذا اتحد الفكر. وهل يمكن أن يتحد العرب على فكر واحد إذا كانت الألفاظ التى هى وسائل تكوين الفكر وإبرازه تختلف من إقليم عربى إلى إقليم آخر؟ ولا يقولن قائل إن الأقاليم العربية المختلفة قد تتوزع المترادفات الدالة على المفهوم الواحد فيما بينها، كأن يتكلم أحد الأقاليم عن "الزواج" ويتكلم إقليم آخر عن "النكاح" وثالث عن "القرآن" ورابع عن "الإملاك"، لأن الإقليم الذى يستعمل واحدًا دون غيره من

هذه الألفاظ لا يجهل معانى الألفاظ الأخرى المرادفة. أما بالنسبة لألفاظ الحضارة التى تأتى من الخارج فنحن نأذن لها أن تكتسب عرفية محلية فى أحد الأقاليم دون غيره، فالأمر مختلف لأن الناس فى الأقاليم الأخرى يجهلون ما استقر عليه العرف فى الإقليم المتقدم ذكره. وربما اتفقوا على غير هذا اللفظ فأعطوه عرفية محلية أخرى، وهنا تبدأ أعراض الانفصام الحضارى بين الأقاليم العربية المختلفة. وهذا شر الأخطار التى يخشى منها على وحدة الأمة ووحدة الحضارة.

قد تكون المجامع اللغوية العربية هى صاحبة المسئولية عن إصلاح هذا الوضع اللغوى الذى تعانى منه ألفاظ الحضارة. من الصحيح أن المجامع اللغوية لا تملك سلطة تنفيذية تستطيع بواسطتها أن تفرض نتائج جهودها فى مجال الاستعمال اللغوى العام. ذلك عذر لابد من قبوله من المجامع، ولابد من الأسف لعدم قدرة المجامع على وضع نتائج جهودها موضع التنفيذ. ويرى بعض الناس أن موضع الداء هو تعدد المجامع، لأن هذا التعدد يؤدى إلى اختلاف ثمرات الجهود، وليس من حق مجمع منها أن يفرض قراراته على المجامع الأخرى. ورأى هؤلاء وارد إذا لم يكن هناك تعاون بين المجامع المختلفة. والسؤال الآن هو كيف يمكن الوصول إلى هذا التعاون وإلى الانتفاع به؟ هناك ما يسمى "اتحاد المجامع العربية"، وهو هيئة يمكن لها أن تتحول فى اجتماعاتها عن الطابع "البروتوكولى" الذى يقوم فى معظم الاجتماعات على الشكليات والمجاملات والعلاقات العامة. أنا أتصور أن يتحول اتحاد المجامع إلى صورة تشبه جامعة الدول العربية وتصدر توصياتها فى المجال اللغوى باسم المجامع العربية جميعا بعد النظر فى قرارات المجامع المحلية واختيار ما يراه الاتحاد مناسبا ورفض ما عداه.

تلك هى الخطوة الأولى. أما ما يلى هذه الخطوة فهو أن ينشئ الاتحاد علاقات بينه وبين الهيئات الثقافية الأهلية والرسمية من صحافية إلى جمعيات ثقافية إلى إعلامية ونحو ذلك على صورة عضويات مراسلة، ثم يمد الاتحاد هذه الهيئات بقراراته للعمل بها. وسيكون هؤلاء الأعضاء المراسلون عند التزامهم بواجبات العضوية خيرا ألف مرة من قوة تنفيذية يعتمد عليها العمل المجمعى.

حين أتجه النحاة العرب إلى استخراج القواعد بتأمل المسموع من كلام العرب كان اهتمامهم منصبا على الكلام دون التكلم، فلم يشغلوا أنفسهم بالجانب النفسى من التكلم قدر ما شغلوا أنفسهم بالحصيلة النهائية لعملية التكلم وهى الكلام. وكان أكثر أنشغالهم بهذه الحصيلة منصبا على ظاهرة الإعراب، حتى لقد كادت عندهم تصبح النحو كله؛ يصدق ذلك بصفة خاصة على عمل أبى الأسود الدؤلى وزملائه من النحاة القراء. ثم رأى النحاة أن عليهم أن يفرقوا بين أنواع مختلفة من الكلمات فقسموا الكلام إلى اسم وفعل وحرف مع تحديد دلالة كل قسم من هذه الأقسام، فجعلوا الاسم مادل على مسمى وجعلوا الفعل مادل على حدث وزمن وعدّوا دلالة الحروف فى غيرها (أى أنهم جعلوا الحروف دالة على الربط والعلاقات بين القسمين الآخرين). وكان الانتفاع بهذه الدلالات قاصرا على تمييز كل قسم عن غيره دون إدماج للدلالات المذكورة فى خطة عامة لبرمجة صياغات الجمل. وكان لابد للأمور أن تشير مع هذا النحو فى ظل القول بهذه الدلالات. ذلك بأن ما سموه "الاسم" كان يشتمل على عناصر لا تدل على "مسمى". فالوصف (اسم الفاعل والمفعول والصفة المشبهة الخ) يدل على موصوف بالحدث، والضمير يدل على غيبة أو حضور مطلقين والمبهمات لا يتحدد مدلولها إلا باضافة أو تمييز، وهلم جرا. أضف إلى ذلك أن بعض ما أطلقوا عليه "الفعل" لاحظ له من معنى الحدث والزمن كليس ونعم وبئس والتعجب أو من معنى الحدث مع دلالته على الزمن كبقية النواسخ الفعلية. وهكذا كانت معانى الأقسام بصورتها هذه لا تعبر عن حقيقة الأمور.

ثم جاءت دراسة الصرف فأدخلت على هذا التقسيم بعض التفصيل، وأنشأت لصياغة الكلمات قوالب وصيغا مجردة ونسبت إلى كل صيغة ما يمكن أن يكون لها

من المعانى الوظيفية (أى التى تبين وظيفتها فى السياق) كالطلب والمطاوعة الخ وحددوا شروط الصياغة الصرفية للأبواب النحوية كشرط الجمود للتمييز والاشتقاق للنعت الخ. ولكن اهتمامهم كان فى كل الأحوال منصبا على المبنى إذ يجعله نقطة البداية التى لا يعرف المعنى إلا بعد تأملها.

معنى ذلك أن النحو العربى كان فى خدمة السامع قبل أن يكون فى خدمة المتكلم. ولعل مرجع ذلك إلى أن النحاة وجدوا المسموع حاضرا بين أيديهم فلم يسألوا أنفسهم عن دور المتكلم فى الصياغة.

ثم جاء عبد القاهر الجرجانى وكان أشعرى المذهب فى حقل الإلهيات. وكان الأشاعرة يقولون بقدم القرآن ويفرقون بين النص المكتوب وبين الكلام من حيث هو صفة من صفات الله تعالى. ولبيان جدوى هذا التفريق قالوا إن الكلام الذى هو صفة قديمة من صفات الله هو "كلام نفسى". وهكذا استوحى عبد القاهر من الكلام النفسى فكرته عن إنتاج الكلام راجعا بالنحو لأول مرة إلى العناية بما يدور فى نفس المتكلم، آملا أن يكون فى ذلك ما يقرب إلى الأفهام فكرة "الكلام النفسى" التى قال بها الأشاعرة. وهكذا جاءت فكرة النظم".

يمر إنتاج الكلام عند عبد القاهر بأربع مراحل: النظم ـ البناء ـ الترتيب ـ التعليق. ولكل مرحلة من هذه طرقها ووظيفتها وهى تتم بهذا الترتيب بمعنى أن المتكلم يبدأ بالنظم وينتهى بالتعليق مارًّا بمرحلتى البناء فالترتيب. فما المقصود بكل من هذه المراحل؟

أولا: النظم:

يرى عبد القاهر أن المقصود بالنظم إنما هو نظم المعانى النحوية فى النفس. فما هى هذه المعانى النحوية؟ إن المعانى النحوية تقع فى طوائف منها ما يلى:

١ - معانى أقسام الكلم كالحدث والزمن والاسمية والكنية والاستعلاء وابتداء الغاية والعطف والاستدراك إلخ.

٢ - معانى الصيغ كالطلب والصيرورة والاتخاذ والمطاوعة إلخ.

٣- معانى أبواب النحو كالإسناد والتعدية والظرفية والغائية والملابسة والنسبة إلخ.

٤- معانى أساليب الجمل كالخبر والتأكيد والشرط والإنشاء والطلب والتعجب إلخ.

ومعنى النظم أن يعمد المتكلم إلى اختيار ما يناسب غرضه من هذه المعانى إذ يوردها على خاطره قبل أن يبنى لها الكلمات (فكرة البناء) أو يرتب هذه الكلمات (فكرة الترتيب) أو ينشى بينها العلاقات بواسطة الربط والمطابقة إلخ (فكرة التعليق). فالنظم إذا هو إيراد المعانى المتعلقة بغرض المتكلم على خاطره استعداد للدخول فيما يتلو ذلك من المراحل. وواضح أن هذه المرحلة نفسية خالصة لا توصف بمفردات الكلمات ولا برصفها فى سياق مستمر، ولا تقبل الدخول فى أداء نطقى. إذ لا يمكن أن يتم الكلام بقولنا: (حدث + زمن + ك ت ب) بدل أن نقول: "كَتَبَ" لأن سرد المعانى النحوية السابقة من قبيل النظم و"كتب" من قبيل البناء.

ثانيا: البناء:

عندما يحدد المتكلم المعانى النحوية التى يريد التعبير عنها ويتم نظمها فى نفسه يبدأ فى تأليف طوائف المعانى فى صورة مجموعات تنتمى كل مجموعة منها إلى كلمة واحدة وذلك كالجمع بين المعنيين (حدث + زمن) الدالين على الفعل فيضم إليهما ما يصحبهما فى نطاق النظم من أصل اشتقاق ليصوغ من الجميع فعلاً مشتقا من الأصل الاشتقاقى المذكور. ويفعل ذلك ببقية كلمات الجملة على غير ترتيب ثم يبدأ هذه الكلمات:

ثالثا: الترتيب:

من المعروف أن الكلام لا يتوالى بصورة جزافية فلا يقال مثلا: على ركب حصانه الفارس

وهى مجموعة من الكلمات تم لها "البناء" ولم يتناولها "الترتيب" ولو بقيت على هذه الصورة من صور التوالى ما اعتُد بها فى قبيل الجملة. ويلزمها لتتحول إلى جملة

أن يصيبها الترتيب لتصحيح " ركب الفارس على حصانه" لأن رتبة الفعل قبل رتبة الفاعل ورتبة الحرف قبل مدخوله غير أن مرحلة الترتيب لا تشتمل على التعليق الذى نلاحظه فى الجملة المذكورة والذى يتمثل فى وجود ضمير يعود على الفارس. فمرحلة الترتيب لا ينظر فيها إلى الروابط.

رابعًا: التعليق:

بعد أن يتم بناء الكلمات كل على حدة دون نظر إلى ترتيبها ثم بعد أن ترتب هذه الكلمات على صورتها التى بنيت عليها دون الربط بينها فى نطاق الجملة تأتى مرحلة التعليق.

وتتمثل هذه المرحلة فى أمور مثل المطابقة وحروف الربط التى تؤدى إلى توثيق الأواصر بين عناصر الجملة على صورة تتحدى الفصل والاعتراض والاستتار والحذف الخ. مما يجعل المعنى الكلى للكلام واضحا ولا سيما إذا أعانت القرائن السياقية والخارجية على هذا الوضوح.

دعنا نضرب مثلا لهذه الخطوات بجملة مثل: جاء الرجل راكبا:

١ ـ مرحلة النظم:

ملابسة: حدث + زمن ماضى		(ج ى ء)
ملابسة: حدث+ وصف		(ر ك ب)
اسناد [اسمية + رفع]		(ر ج ل)

معنى هذا العرض أن النظم يشتمل على معان نحوية هى الحدث والزمن الماضى والوصف بالحدث وأن بين الحدثين ملابسة فى الوقوع إذ وقعا معا وأن الحدثين قام بهما مسند إليه واحد يحدده معنيان هما الأسمية والرفع. أما على يسار العرض فهناك أصول اشتقاق يناسب كل منها الحدث الماثل بإزائه وواضح أن المعانى النحوية هنا ثابتة لخصوص هذه الجملة: أما أصول الاشتقاق فصالحة للاستبدال فى نطاق مبدأ

الترادف أى أنه يمكن أن نستعمل "أتى" بدلا من "جاء" و "محمولا" بدل "راكبا" الخ المهم أن مرحلة النظم لا تتعدى طبيعة هذا العرض ولا تصلح للأداء النطقى.

ولقد يرد على البال سؤال عن السبب الذى دعا عبد القاهر إلى العناية بالتكلم الذى لم يجد من النحاة اهتماما يجلى جوانبه الكيفية والتفسية.ولعل السبب يكمن فى الموضوع الذى تصدى عبد القاهر لسير أغوراه ذلك أن الإعجاز لا يكون من جانب السامع وإنما يكون من جانب المتكلم وكان عبد القاهر معنيا بالمتكلم يريد أن يضرب من خلاله مثلا يلقى ضوءأ ما على ما قال به الأشاعرة من مفهوم "الكلام النفسى". ﴿ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة إبراهيم الآية:٢٥).

٢ ـ مرحلة البناء:

كان المتكلم فى مرحلة النظم يؤلف يبدو المعانى (أى ينظمها) على صورة مجموعات يلتقى أفراد كل مجموعة منها بما يكون بين هذه الأفراد من تكامل. فلولا هذا التكامل بين أفراد كل مجموعة من المعانى ما وصل الأمر إلى مرحلة البناء. فلا يعين على البناء مثلا أن يؤلف المتكلم بين (حدث + ملابسة) لأن الملابسة تقتضى حدثين أثنين يحدثان فى وقت معا. أما حدث واحد بمفرده فلا يوصف بأنه داخل علاقة ملابسة.

ولكن المتكلم إذا ألف بين (حدث + زمن) فإنه يستطيع أن يبنى بهما "فعلا" متسعينا بأصول الاشتقاق الملائمة. والأمر كذلك إذا وقع التناقض بين المعنيين فلا يجوز بناء كلمة بواسطة الجمع بين (اثبات + نفى) أو بين (تعدية + لزوم) ومعنى ذلك أن مرحلة البناء تقتضى أن يسبقها نظم يخضع لحدود نفسية ومعنوية لولاها ما سمى الجمع بين المعانى نظما.

ويقتصر عمل المتكلم فى هذه المرحلة (فيما يبدومن كلام عبد القاهر) على بناء كلمات غير مترتبة بحسب شروط الصياغة النحوية فمثلها مثل ما أوردناه من قبل من مجموعة الكلمات غير المرتبة فى :

على + ركب + حصان + ال + هـ + فارس

التى إن صدق عليها مفهوم البناء (بمعنى أنها تتمثل فيها أبنية الحرف والفعل والاسم وأداة التعريف والضمير) فإنها لم تتحقق لها بنية الجملة العربية التى تتطلب ترتيب هذه العناصر اللفظية حسب شروط قرينة الرتبة فى صياغة الجملة العربية.

٣ ـ مرحلة الترتيب:

وهذه العبارة الأخيرة (ترتيب العناصر اللفظية حسب شروط قرينة الرتبة). هى ملخص ما تتطلبه مرحلة الترتيب عند عبد القاهر. فهنا ينبغى أن يتقدم الحرف على مدخوله وأن يتقدم الفعل على الفاعل والمضاف على المضاف إليه كما أن الأصل فى الفاعل أن يتقدم على المفعول به. ولو أننا نظرنا إلى مجموعة الكلمات التى سبق ذكرها لوجدنا بعض هذه الرتب قد تحقق دون أن تتحول مجموعة الكلمات إلى جملة:

فالحرف (على) تقدم على مدخوله (حصان)

والفعل (ركب) تقدم على فاعله (فارس)

والمضاف (حصان) تقدم على المضاف إليه (هـ)

ومع تحقق هذه الرتب ما تزال مجموعة الكلمات أبعد ما تكون عن صياغة الجملة العربية ومعنى ذلك أن ثمة مطلبا آخر من مطالب الصياغة لابد أن يتحقق حتى يمكن لهذه المجموعة من الكلمات أن تبدو فى صورة الجملة العربية:

٤ ـ مرحلة التعليق:

ويتحقق التعليق بالتضام والربط والمطابقة. أما التضام فله صور ثلاث: أ ـ التلازم ، ب ـ التوارد ، جـ ـ التنافى . والتلازم إما أن يكون على طريق الافتقار كما فى افتقار الحرف إلى مدخوله، وإما أن يكون على طريق الاختصاص كاختصاص حروف الجر بالأسماء. والتوارد ذو جانبين أحدهما نحوى كجواز تعدية الفعل بهذا الحرف أو ذاك أو بدونها نحو شكره وشكر له ورغب عنه ورغب إليه والثانى معجمى مداره حول ما يعرف بالمناسبة المعجمية بين الألفاظ إذ يجوز أن نقول فهم التلميذ الدرس ولا يجوز أن نقول فهم الحجر الطعام. ومن هنا جاءت العبارة الشهيرة فى تعريف المجاز بأنه إسناد الفعل إلى غير من هو له، أى إلى لفظ تقوم بينه وبينه علاقة المفارقة المعجمية والصورة الثالثة من صور التضام هى صورة التنافى وهى التى يسميها النحاة "الامتناع".

وبحسب هذا الجانب من جوانب التضام يمتنع الفصل بين المتلازمين بأجنبى كما يمتنع نعت الضمير وإضافته الخ. أما الربط فيكون بإعادة الذكر وعود الضمير وبالإشارة وأل والموصول وأحيانا بالوصف. تأمل ما يلى:

١ ـ ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُۥنَ أَلْسِنَتَهُم بِٱلْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران الآية:٧٨) (إعادة الذكر)

٢ ـ ﴿ وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ﴾ (سورة لقمان الآية: ١٣) (عود الضمير على لقمان وعلى ابنه).

٣ ـ ﴿ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ (سورة الأعراف: الآية٢٦) (أى: وملابسة التقوى هى خير).

٤ ـ ﴿ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴾ (النازعات الآيات ٤٠، ٤١) (أى مآواه).

٥ ـ ﴿ وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾ (التوبة الآية: ٩٠) (أى وقعدوا).

٦ ـ ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴾ (الكهف الآية: ٣٠) (أى أجرهم).

٧ ـ ﴿ وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ﴾ (التوبة الآية: ١٢) (أى فقاتلوهم).

وأما فائدة المطابقة فى التعليق فحسبك أن تنظر إلى تفكك عناصر الألفاظ فى نحو:

الرجلان الفاضلات يفعلون الخير

بدلا من الرجلان الفاضلان يفعلان الخير.

وهكذا يتضح بعد بيان وسائل التعليق أنه ينبغى للجملة أن تمر بالأمور الآتية:

١ ـ إسناد الفعل ركب إلى فاعل مفرد غائب (ليس فى الجملة مثنى ولا مجموع).

٢ ـ ولا يمكن للحصان أن يكون هو الفاعل بحكم ما ذكرناه بالنسبة للتوارد.

٣ ـ فينفرد لفظ (فارس) هنا بقبول الإسناد إليه.

٤ ـ تفتقر أداة التعريف إلى اسم تعرفه وهى بلفظ (فارس) أولى منها بلفظ (حصان) لأننا لو جعلنا (ال) للفظ حصان لامتنعت إضافته إلى الهاء ولاحتلمت الهاء إذ تصبح الجملة: "ركب فارسه على الحصان" وذلك مخالف للاستعمال الجيد.

٥ ـ بالنظر إلى حرف الجر (على) نجد أنه يفيد الاستعلاء ويفتقر إلى مستعلًى عليه ولما كان من غير المعقول أن يستعلى الحصان على الرجل أتضح أن مدخول (على) لابد أن يكون هو الحصان.

٦ ـ بقيت الهاء وقد عرفنا أنها أضيف إليها الحصان وقد قامت المطابقة بينها وبين مرجعها وهو (الفارس) لتكون وسيلة من وسائل التعليق فى الجملة.

هذا هو رأى عبد القاهر (فيما رأى) بالنسبة إلى ما يقوم به المتكلم نظما ثم بناء ثم ترتيبا ثم تعليقا فإذا تحقق ذلك استوفت صياغة الكلام شروطها. وواضح مما سبق أن النظم نفسى وأن البناء والترتيب والتعليق نشاط لغوى.

هكذا تصبح الجملة بعد تفرق كلماتها محكمة النسج على صورة: "ركب الفارس على حصانه" ولكن هذا النسج ليس هو الصورة الوحيدة التى يمكن أن تأتى عما سبق من نظم المعانى فى النفس إذ يمكن أن يتم التغيير عن هذا النظم نفسه بصور نسجية أخرى مثل:

على حصانه ركب الفارس

الفارس ركب على حصانه

ركب على حصانه الفارس (بعود الضمير على متقدم فى الرتبة)

الفارس على حصانه ركب

ويعود تعدد صور التركيب إلى الترتيب والتعليق إذ بهما ومن خلالهما تصبح هذه لصور المتعددة ذات دلالة نحوية على رغم اختلاف رصف الكلمات فى كل منها عنه فى الأخرى وذلك يرجع إلى وحدة النظم.

ما أشبه الليلة بالبارحة . قلنا إن النحاة العرب وجهوا عنايتهم إلى الكلام أكثر مما وجهوها إلى المتكلم. وكان حظ المتكلم من عنايتهم أن ينسبوا صورة معينة من

صور الكلام إلى قبيلة بعينها أو قوم من قبيلة أو حى من أحياء العرب. هذا ولم يشغلوا أنفسهم وراء ذلك إلا بطائفة من العلل قالوا إن العرب كانت تدركها وتراعيها فى كلامها مما يعدّ أقصى حد بلغوه فى قربهم مما يجرى فى ذهن المتكلم عند الكلام وإن كانت هذه العلل نفسها قد وجدت من الخليل ما يدل على أنها ليست من الثوابت التى لا فكاك منها إذ قال إنه يعلل بما عنده ويترك لغيره أن يعلل بغير ما علل هو به. كان هذا هو الوضع فى حقل النحو العربى قبل عبد القاهر فلما برزت فكرة النظم عند عبد القاهر وقف النحو وعلم النفس يدًا بِيَد.

والصورة شبيهة بذلك فى البنيوية الأمريكية مع اختلاف فى بعض التفاصيل. ولنا هنا أن نبادر برصد بعض الاختلاف فى ظروف النشأة بين البنيوية الأوربية والبنيوية الأمريكية. لقد نشأت البنيوية الأوربية فى ظل تطور الدرس النظرى للغة ابتداء من المنهج التاريخى إلى المنهج المقارن التى أبرز فكرة القوانين الصوتية بما فيها من معيارية صارخة ثم ظهور مذهب سوسير ومدرسة براغ وما دَعَوَا إليه من إحلال الوصفية محل المعيارية ثم نشأت البنيوية فى أحضان هذه الدعوة. فالبداية نظرية خالصة. أما البنيوية الأمركيية فقد نشأت فى جو تطبيقى. لقد وجد الأمريكيون أنفسهم وجها لوجه أمام عدد عظيم من لغات الهنود الحمر. وكان الأمريكيون لا يعرفون هذه اللغات، ومن ثم لا يدركون معنى ما يسمونه من أصواتها وجملها. فكان عليهم أن يبدأوا بتأمل كلام لا يفهمون معناه لاستنباط قواعد صياغته فحسب دون دخول فى مضايق تحليل المعانى التى لم يكن لهم سبيل إلى معرفتها.

كان المذهب السلوكى فى ذلك الوقت فى عنفوان قوته. وكان اعتداده بالإثارة والاستجابة فى تفسير السلوك الإنسانى متكأ لفهم معين من جهة اللغويين الأمريكيين لفكرة المعنى فقالوا إن المعنى هو الاستجابة ذاتها، وسدّوا الذرائع بهذه المقولة مطرحين وراءهم كل تفكير فى المعنى وشاغلين أنفسهم بالصياغات اللفظية فقط. وتعددت اتجاهات نظرهم إلى طريقة تناول هذه الصياغات حتى انتهوا إلى فكرة المكونات المباشرة immediate constituent وهى التى تهبط من مستوى الجملة إلى مستوى المركبات phrases ثم من مستوى المركبات إلى ما دونها من ألفاظ وذلك الذى أطلقوا عليه: immedite constituent analysis أى تحليل المكونات المباشرة.

كانت هذه التحليلات هى نقطة البداية عند تشومسكى . فلقد لاحظ أن اللغويين يعنون بالشكل دون المضمون، وأن فى ذلك على حد تعبيره "عناية بالدقة على حساب الصدق". وهكذا اتجه بفكره إلى إدماج عنصر المعنى فى عملية صياغة الجملة. لاحظ تشومسكى أنه يمكن أن تتعدد صور الجملة (أى طرق الصياغة) ثم لا يتغير المضمون . فيمكن مثلا عند إرادة التعبير عند مجىء الرجل راكبا أن يقال:

جاء الرجل راكبا ـ جاء الرجل يركب. جاء الرجل وهو راكب ـ جاء الرجل وهو يركب ـ راكبا جاء الرجل ـ الرجل جاء راكبا الخ.

فاهتدى بتعدد الصياغات ووحدة المضمون إلى أن الذى بين أيدينا من هذه الصياغات المتعددة ليست أكثر من بنيات سطحية مما تعود البنيويون أن يركزوا عليه انتباهم، وأن وحدة المضمون لابد أن تدل على أن هناك بنية عميقة هى أصل ذهنى مشترك بين هذه البنيات السطحية المتعددة، وأنها لا تنطق ولكنها يرمز لها فهى أشبه شئ بعلاقة دلالية تربط بيبن البنيات السطحية المتعددة، ولكونها علاقة فهى كسائر العلاقات لا تنطق.

كان ذلك سببا فى احتفاء المشتغلين بعلم النفس من الأمريكيين برأى تشومسكى فيما يختص بالبنية العميقة وكان كذلك سببا فى اعتراض بعض زملائه على رأيه أن التوليد من العميقة إلى السطحية عمل نحوى صرف فاتجهوا إلى إنشاء دراسة تسمى "الدلالة التوليدية" أو generative Semahnties. ولكن مشروع تشومسكى كمشروع عبد القاهر الجرجانى كان جهدا نظريا شامخا ولكنه لم يكن ذا نفع كبير فى مجال التعليم وذلك لسبب بسط هو انك لا تستطيع أن تتكلم إلى التلاميذ المبتدئين عن أمور موغلة فى التجريد كالنظم أو كالبنية العميقة. ومن هنا درج المعلمون على الاكتفاء فى الدروس بالتحويل من بنية سطحية إلى أخرى سطحية دون أن يقتربوا من البنية العميقة فاقتصر درس النحو على أن يكون تحويليا transfarmative دون أن يكون توليديا generative. وكذلك كانت الحال من قبل مع تعليم النحو العربى إذ رأينا النحاة يتكلمون عن التمييز المحول عن الفاعل أو عن المفعول وعن الجملة التى تحولت من أسمية إلى منسوخة وعن الفاعل والحال اللذين سدا مسد الخبر

وعن تأويل المصدر وعن واجبات الحذف وهلم جرا مما يعد من قبيل تحويل البنية السطحية إلى بنية سطحية أخرى. أما الانتقال من نظم المعانى فى النفس إلى صياغة الجملة فلم يعرفه معلموا النحو العربى فى أى عصر من تاريخ التراث.

ما سرّ هذا التلاقى شبه التام بين رأى عبد القاهر فى النظم ثم ما يترتب عليه من بناء وترتيب وتعليق وبين رأى تشومسكى فى البنية العميقة وما يتولد عنها من بنيات سطحية. هل كان ذلك منهما مجرد توارد خواطر، أو كان تأثرا من ناحية تشومسكى بفكر عبد القاهر؟ وإذا كان ذلك تأثرا فكيف وصل الأثر إلى تشومسكى مع اختلاف الدار والعصر واللغة والثقافة، ثم مع ما يصادفه التراث العربى والإسلامى فى الغرب من تجاهل متعمد حينا ومن انتقاص وتهجم حينا آخر حتى لقد وصل الأمر إلى إنكار فضل العرب فى حقل الدراسات اللغوية بنسبة التأثير إلي الهند فى حقل الأصوات والصين فى حقل المعجم واليونان فى حقل النحو. ثم لم يبقوا للعرب إلا مقعد التلميذ من هذه الأمم.

ولست أحب أن أنسب إلى تشومسكى تهمة النقل عن عبد القاهر على رغم درجة القرب بين الفكرتين. ولكننى أشير فقط إلى بعض القرائن التى تدل على التأثر دون النقل. فالذى بلغنى عن تشومسكى أن أباه من رجال الدين اليهود الذين يعرفون العربية معرفة جيدة ويعرف أن نحو اللغة العبرية قد تمت صياغته لأول مرة فى الأندلس الإسلامية على غرار نحو العربية. ومن هنا لابد أن يكون له إلمام بكتب النحو العربى. وإذا كان الأمر كذلك لم يكن من الغريب أن يكون الابن المحب للاستطلاع العلمى قد سأل أباه أن يترجم له أو أن يمكنه على نحو ما من معرفة بعض آراء النحاة العرب التى تأثر بها النحو العبرى أو أى شئ من هذا القبيل ثم أن تكون فكرة النظم كما قررها عبد القاهر قد جرى ذكرها أو الإشارة إليها. وليس ببعيد أن تكون فكرة النظم مصدر الإيحاء بفكرة البنية العميقة أيا كانت الظروف التى صيرتها مصدرا للإيحاء والتأثر.